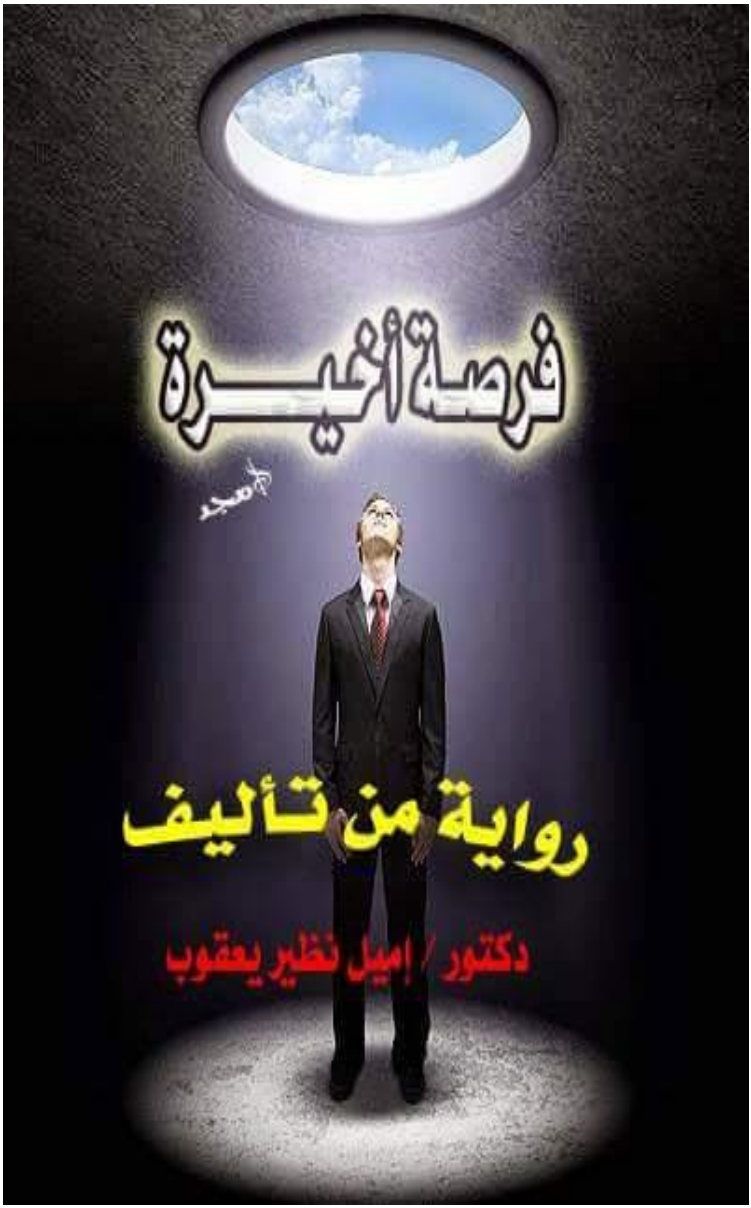
فرصة أخيرة
رواية من تأليف
دكتور / إميل نظير يعقوب

(فرصة أخيرة)

رواية

من تأليف

د.إميل نظير

(فرصة أخيرة)

هي

الجزء الثاني

من

رواية

(لا يقدر بثمن)

مراجعة

هاني عبد المنعم

تصميم الغلاف للفنان المبدع

أمجد نصيف

فرصة أخيرة

* هل يمكن أن يمنح الله الإنسان فرصة أخيرة بعد أن وصل بالفعل إلى جهنم؟ .. لماذا منح الله القدير"حسن رشدي" تلك الفرصة؟

* هل منح الله القدير "حسن رشدي" وحده تلك الفرصة أم يمنحنا جميعا العديد من الفرص؟

* هل يستطيع "حسن رشدي" أن يسترد ثروته بعد أن فقدها وصار مفلسا؟ وهل يستطيع أن يسترد شركاته بعد أن باعها وقبض الثمن؟

* لماذا يتهم "حسن رشدي" بريئا بالجاسوسية ويتسبب في سجنه لعشرين عاما؟ وكيف يمكن أن يتصرف البريء إذا فاض به الكيل؟

إهداء

إلى شقيقي الأصغر أسامة نظير القريب إلى قلبي والعزيز في خاطري الذي وقف إلى جواري مرارا وتكرارا ولم أستطع أن أرد له جميلا واحدا مما أدين له .. إنني الأخ الأكبر وكان من واجبي أن أقف إلى جانبه أسانده في حياته وأعزيه في متاعبه ولكن القدر كان له رأي آخر فأبدل الأدوار وجعل لشقيقي أفضالا علي تطوقني وتطوق عنقي طوال حياتي ولو أضأت له أصابعي شموعا تنير طريقه ما أوفيته حقه علي فشكرا لك يا من كنت وستظل ليس فقط أخي وشقيقي .. بل سندي دوما وصديقي

د. إميل نظير

تنويه

تلك الرواية ربما حدثت في الواقع وربما لم تحدث ولكنها من المؤكد أنها حدثت في خيال المؤلف لذا فأي تشابه في الأشخاص أو الأسماء أو الأحداث هي فقط من قبيل الصدفة .. فقط الصدفة البحتة

"سأجيب على كل أسئلتك يا "حسن" بيك؟"

نطق رجل مهندم أنيق الملبس وسيم الطلعة بتلك العبارة قبل أن يقرب مقعدا من فراشي ويجلس عليه بينما كنت أستلقي على الفراش

في وهن شديد في المستشفى فنظرت نحو الرجل في دهشة بينما أقول:

– هل أعرفك؟

– لست أظن

– وهل تعرفني؟

– تمام المعرفة

– من أنت؟

– المقدم شريف زيدان من المخابرات العامة

– وماذا تريد المخابرات العامة مني؟

– لا شيء في الواقع .. أنت الذي تريدنا

قلت في استنكار:

– أنا؟

– لقد أنقذنا حياتك "حسن" بيك ونقلناك إلى أقرب مستشفى وأجرينا لك جراحة عاجلة

– فعلتم كل هذا معي؟

– وطنك من فعل ذلك

– وطني؟

– وطنك الذي بعته وسلمت اقتصاده لأعدائه لهدمه و ..

– لم أبع وطني قط

– ماذا تسمي ما فعلت إذن؟

– سأحكي لك ما حدث وإن كنت خائنا فأنا مستعد للمحاكمة

– كلي آذان صاغية

– ولكن قبل ذلك أريدكم أن تقبضوا على هؤلاء الأوغاد الذين خدعوني وتآمروا عليّ

– من تقصد؟

– أولهم ذلك الوغد "أكرم شوقي"

– تقصد "دافيد حاييم"؟

– من "دافيد حاييم"؟

– إنه ضابط مخابرات إسرائيلي إتخذ إسما مستعارا وهو "أكرم شوقي" ليعمل لدى مجموعة شركاتك ويخدعك

– الوغد! .. ويله مني

– إننا نعلم كل شيء منذ البداية

– حقا؟

– لو لم يكن لهذا الوطن ذراعا قوية تحميه لما بقي صامدا حتى الآن ولما نام أهله مطمئنين ملىء جفونهم

– لماذا لم تخبروني بالأمر؟

– لو علم أنك كشفت أمره لقتلك على الفور

– هل قبضتم عليه؟

– نعم .. ولقد أطلقنا سراحه صباح اليوم

– لماذا؟

– لديه جواز سفر أمريكي وليس لدينا دليلا واحدا ضده

– الوغد!

– اطمئن فلن نتركه .. لابد وأن يدفع الثمن يوما

– وماذا عن السائق؟

– ماذا عنه؟

– لقد حاول قتلي بالإتفاق مع الطبيب "عادل فهمي" الذي أعطاه مسدسه لقتلي وسرق كل منهما نصف ثروتي .. جميعهم شركاء في المؤامرة ضدي

– لقد كدنا أن نقبض علي السائق على الحدود ولكنه هرب للأسف

– إذن فقد ضاعت أموالي

– لا لم تضع

أحسست بقلبي ينبض فرحا في قوة بينما أسمع تلك العبارة فقلت لأتأكد:

– لم تضع؟

– لقد أوقفنا السيارة وكدنا أن نقبض على الرجل ولكنه تمكن من الهرب وبلوغ الحدود الإسرائيلية

– إنه ليس بسائق

– ماذا تقصد؟

– إنه ضابط في الموساد يدعى "دانيال كاهان"

– "دانيال كاهان"؟ .. هل أنت متأكد؟

– متأكد تماما

– ألديك صورة له؟

– توجد صورة في ملفه في إدارة المجموعة ولكن لا يمكنني إهدائها لكم

– لماذا؟

– لقد بعت المجموعة لشركة متعددة الجنسيات

– أعلم .. أعلم .. ولكننا سنتصرف .. لدينا صورة له سنعرضها عليك لنتأكد

– وماذا عن الطبيب؟

– ماذا تعرف عنه؟

– إنه شريكهم الثالث ولكن لا يهم الآن ما أعرف

– ما المهم إذن؟

– لابد من القبض عليه ليحاكم ويرد لي ما أخذ من أموالي

– أين هو الآن؟

– لا أدري ولكنه من المؤكد أنه في حدود المنطقة التي كنت تائها فيها .. لابد أن تقبضوا عليه قبل أن يفر بأموالي إلى اسرائيل

– إطمئن سنقبض عليه

لم يكن الطبيب هو الوغد كنت أنا أكبر وغد في الدنيا .. كنت أعلم أنه بريء مما أنسب إليه من خسة وحقارة .. كنت أنا من يرد

جميله بمنتهى الخسة والحقارة بعد أن أنقذني ولكنه أيضا حقير .. إنه لم ينقذني مجانا ولم يكتفي بربع ثروتي .. لقد ابتزني .. أخذ نصف ثروتي مقابل بعض شطائر الخبز وبعض زجاجات الماء .. الغبي! .. لو اكتفى بربع ثروتي لتركتها له عن طيب خاطر ولكنه استغلني وأخذ نصف ثروتي عنوة .. ليدفع إذن ثمن حقارته! .. انتبهت من شرودي على صوت المقدم شريف زيدان يكرر:

– إطمئن .. سنقبض عليه

وأمسك بهاتفه المحمول وضغط أزراره وقربه من أحد أذنيه بينما يقول:

– سالم!

– كما تأمر سيادة المقدم!

– لتستصدر أمرا بالقبض على طبيب يدعى"عادل فهمي"؟

– كما تأمر سيادة المقدم

– ولتكثفوا البحث عنه .. ستجدونه قريبا من المنطقة التي كان "حسن رشدي" تائها بها يحاول إتمام المهمة وتهريب المال والذهب إلى اسرائيل

– سنفعل سيادة المقدم

– ولتبلغني بمجرد العثور عليه

وأنهى المقدم شريف زيدان المكالمة ونظر نحوي قائلا:

– اطمئن! سنقبض عليه بإذن الله

– المهم أن تقبضوا عليه قبل أن يعبر الحدود بأموالي

– اطمئن فالحدود مغلقة .. مغلقة تماما

* * *

في منطقة قاحلة من الصحراء في ذلك الحر القائظ الشديد الحرارة في أحد أيام شهر يوليو حيث الصيف في أشده كان الطبيب "عادل فهمي" يمسك بيد إبنه "يوسف" في يمناه وأصغر بناته "عزة" في يسراه بينما أمسكت زوجته بيدي "نجلاء" و"عبير" بينما أمسكت "ناهد" بيد "نهى" وسار الجميع يتطوحون فوق الرمال كالسكارى .. قالت "سامية" زوجة الطبيب بصوت واهن:

– لماذا تصر على إنهاك أرواحنا؟

نظر الطبيب إليها في وهن بينما يقول:

– لست أفهم ماذا تريدين بالضبط؟

– دعنا نموت في سلام؟

نظر إليها قائلا بإستنكار:

– ما زال لدينا أمل

– أي أمل والرمال تحاصرنا من كل جانب ولا تنتهي أبدا؟

سقطت "ناهد" وتلتها "نهى" الممسكة بيدها بينما نظرت الأولى نحو والدها بينما تقول:

– أرجوك دعنا نموت يا أبي!

– مستحيل!

– لقد تعبنا للغاية

قالت "نهى" في وهن واضح:

– لا فائدة

قالت "نجلاء" وقد تركت يد أمها وارتمت تفترش الرمال:

– ليس هناك من أمل

تركت "عبير" يد أمها بدورها وجلست على الرمال بينما تقول:

– الموت هو الحل الوحيد لنستريح من عذابنا

جلس الرجل بدوره ومعه "عزة" و"يوسف" بينما يقول لزوجته:

– ألم يبق خبز أو ماء؟

– قالت في سخرية لا تتناسب مع الموقف:

– لدينا بعض الألماس .. هل تريد أن تأكل؟

وأخرجت كيسا من القماش مليء بالألماس وأفرغته فوق الرمال بينما تستطرد:

– فلتأكل الألماس التي بعتنا به! .. فلتأكل ما بعت به زوجتك وأولادك!

– عجبا لقد كدت تطيرين فرحا بتلك الصفقة و ..

قاطعته قائلة في غضب:

– ولكني طلبت منك أن نمضي في ذات اليوم

– ليس الوقت وقت شجار فليس لدي قدرة على الكلام

ولم تمض ساعة واحدة حتى ارتمى الجميع على الرمال في انتظار الموت .. كان الموت أملا يخلصهم من عذابهم .. كانوا يطلبونه بكل قلوبهم وأما الموت فقد أبى إلا أن يعذبهم قبل أن يلتهمهم ويطلق أرواحهم حرة طليقة ولكن كان للقدر رأي آخر مخالف تماما .. فجأة سمع الجميع أزيز قوي لمروحية قادمة

أحيت الأمل في داخلهم من جديد ولكن المروحية عبرت فوقهم ولم تلحظ وجودهم تماما رغم أن مهمتها كانت هي البحث عنهم بالتحديد ومات الأمل من جديد وارتسم اليأس بكل صوره على الوجوه المنهكة للجميع ولكن هناك داخل المروحية انتبه قائدها فجأة على صوت رفيقه يقول:

– انتظر!

– ماذا حدث؟

– فلتعد

– لماذا؟

– لقد لاحظت شيئا يتحرك هناك

– أين؟

أشار إلى الخلف بسبابته بينما يقول:

– هناك

وأدنى منظاره المقرب من عينيه ونظر عبره ليتأكد .. ورأى عائلة الطبيب .. دارت الطائرة حول نفسها عائدة نحوهم وارتفع الأمل فجأة في قلوب الجميع .. ارتفع الأمل من جديد

* * *

ضغط وكيل النائب العام أحد الأزرار على أحد جانبي مكتبه فانطلق صوت رنين جرس عال على إثر ذلك وما هي إلا لحظات حتى دلف أحد الجنود إلى الغرفة وأدى التحية العسكرية أمامه ..

– تمام يا أفندم!

– أحضر الطبيب المتهم!

– كما تأمر يا افندم

وخرج الجندي وسرعان ما عاد مصطحبا الطبيب "عادل فهمي" وعاد يؤدي التحية العسكرية ..

– تمام يا افندم!

وصمت لبرهة ثم عاد يقول:

– المتهم يا افندم

قال وكيل النائب العام بصرامة:

– دعه وانصرف!

– كما تأمر يا افندم

انصرف الجندي فأشار وكيل النائب العام إلى مقعد أمامه بينما يقول للطبيب:

– تفضل بالجلوس!

جلس الطبيب "عادل فهمي" بينما يتمتم بالشكر والقلق يبدو ظاهرا في عينيه قبل أن يقول:

– سيادة الوكيل .. لماذا أنا هنا بالضبط؟

– ألا تدري؟

– نعم لست أدري .. ما هي تهمتي بالضبط؟

– التهم كثيرة

بدا الذهول على وجه الطبيب بينما يقول:

– لقد كنت تائها وأبنائي في الصحراء هل تعتبر تلك تهمة لديكم؟

– أنت متهم بأنك شريك في مؤامرة ضد البلاد تهدف إلى تخريب إقتصادها

فغر الطبيب فاه في دهشة بالغة بينما أشار بسبابته نحو صدره قبل أن يقول في ذهول:

– أنا أخرّب إقتصاد بلادي؟

– نعم أنت

– لقد عملت لسنوات في الغربة لأجلب العملة الصعبة لبلادي و ..

– دعك من تلك الشعارات الزائفة وأعطني إجابة مقنعة!

– علام أجيب بالضبط؟

– ما هو قولك في التهمة المنسوبة إليك؟

– إنني أرفضها وأستنكرها تماما

– لماذا شرعت في قتل رجل الأعمال المدعو "حسن رشدي"؟

قال في ذهول:

– أنا شرعت في قتل الرجل؟

– لماذا هددته بمسدسك إذن؟

– لقد كنت أحمي نفسي منه فهو من حاول قتلي

– ولماذا حاول الرجل قتلك؟

– لأنني أنقذته و ..

– أريد كلاما معقولا! أم أنك تدعي الجنون؟

– لماذا أرغمت "حسن رشدي" على تسليمك نصف ثروته تحت تهديد السلاح وتقدر تلك الثروة بعشرين مليونا من الدولارات؟

– لقد سلمني نصف ثروته دون تهديد

– والمقابل؟

– نصف ما معي من شطائر الخبز والماء

– أما زلت تدعي الجنون؟

– صدقني .. لقد عرض هو علي ذلك بنفسه

– وهل تساوي شطائر الخبز والماء كل تلك الملايين من الدولارات؟

– في الصحراء تساوي أكثر يا افندم

– لماذا سلمت مسدسك للمدعو" دانيال كاهان"؟

– من "دانيال كاهان"؟

– ألا تعرفه؟

– إنها المرة الأولى التي أسمع فيها ذاك الإسم

– الضابط الإسرائيلي الذي كان متنكرا في شخصية سائق "حسن رشدي"

– ضابط إسرائيلي؟ .. سائق؟ .. إنني لا أفهم شيئا

– وما دمت لا تعرفه فلماذا أعطيته مسدسك؟

– لم أعطه إياه أبدا؟

– كيف وصل إليه إذن؟

– لابد و قد سرقه مني

– ردودك ليست منطقية للأسف

– صدقني هذا ما حدث

– أنت متهم بالإشتراك مع السائق في الشروع في قتل "حسن رشدي" والإستيلاء على أمواله ومحاولة تهريبها إلى إسرائيل

فغر فاه في دهشة بالغة بينما يقول:

– إسرائيل؟

– نعم إسرائيل .. لقد تم القبض عليك بينما كنت متوجها نحو إسرائيل

– لقد كنت تائها و ..

– هل يمكنك تفسير كيفية دخولك إلى مصر؟

– لقد كنت في الأردن وعبرت الحدود بالسيارة

– ولماذا لا يوجد أي ختم للحدود على جواز سفرك؟

– لقد عبرت الحدود عبر الصحراء و ..

قاطعه قائلا:

– لماذا تعبر بطريقة غير شرعية إن لم تكن مخطئا؟

بدت الحيرة على الطبيب فصمت ولم يجب فاستطرد وكيل النائب العام قائلا:

– الرصاصة التي أصابت "حسن رشدي" كانت من مسدسك .. هل لديك تفسير؟

قال في حيرة:

– لا ولكن ..

قاطعه وكيل النائب العام قائلا:

– ليس من لكن .. موقفك في القضية ضعيف .. ضعيف للغاية

* * *

كنت أجلس مسترخيا في شرفة جناحي بفندق شيراتون فقد بعت الفيلا وكل ما لدي من أصول قبل سفري وكنت أفكر في شراء فيلا أخرى وحتى ذلك الحين حجزت ذلك الجناح الفخم في الشيراتون .. كنت أفكر فيما آل إليه حالي .. أصبحت الآن بلا عمل وبلا سكن .. كنت نادما للغاية لما حدث وكنت ألوم نفسي كثيرا .. صحيح أن الوغد "أكرم شكري" قد خدعني ولكني كنت ألوم نفسي على ثقتي به .. كيف سمحت لنفسي أن يخدعني وغد مثله؟ ..

أفقت من شرودي فجأة على صوت رنين الهاتف .. ترى من يعرف بوجودي هنا؟ .. لست أدري .. رفعت سماعة الهاتف .. جاءني صوت موظف الإستقبال في الفندق عبر الهاتف قائلا:

– هناك سيدة تريد مقابلة سيادتكم "حسن" بيك

قلت في دهشة:

– سيدة؟

– نعم "حسن" بيك

– من هي بالضبط؟

– مدام "سامية" حرم الطبيب "عادل فهمي"

– لن أقابل أحدا

– ولكنها تريدك في أمر هام

قلت في ضيق:

– دعها تصعد إلى جناحي .. سأستقبلها ولكن لخمس دقائق فحسب

– سأخبرها "حسن" بيك

ولم تمضي دقيقة واحدة حتى كانت السيدة "سامية" تطرق باب جناحي بالفندق .. فتحت الباب وفوجئت بها تصطحب معها أبنائها الستة جميعا الخمس بنات والطفل

الصغير يوسف .. حملقت بها وبأبنائها قليلا قبل أن أتنحى عن مدخل الباب وأدعوها للدخول مع أبنائها..

– تفضلوا

دلف الجميع إلى الداخل وقدتهم إلى حجرة الإستقبال ولم يجلس أي منهم وبدت همهمات منهم ولكن الام أشارت إليهم ان يصمتوا جميعا لتتكلم ..

– "حسن" بيك لن أخذ دقائق من وقتك

أجبتها بجفاء:

– ماذا تريدين مني؟

– أرجوك! .. ارحم زوجي!

– ولماذا لم يرحمني هو؟

– لقد أنقذ حياتك

– بعد أن إبتزني وأخذ نصف أموالي

– لقد كان إتفاقا وأنت وافقت عليه

– وافقت مرغما

– بل وافقت بإرادتك

– لقد خيرني بين أن أتنازل عن حياتي وأموت أو أتنازل عن نصف ثروتي فماذا كنت لأفعل؟

– لقد حضرت الإتفاق وكنت شاهدة عليك .. لقد كنت راضيا

– رغما عني

– ألست أنت من عرض عليه المال مقابل الخبز؟

– لقد عرضت عليه ربع ثروتي عشرة ملايين دولار مقابل بعض شطائر الخبز والمال وكان عرضا سخيا مني ولو وافق على عرضي لتركت له المال راضيا

– إننا نوافق على هذا العرض

– لقد فات الأوان

– سنرد لك كل المال

– لقد ردت لي الشرطة كل المال بالفعل بعد أن عثروا على سيارة زوجك الوغد

– حسنا .. مادمت حصلت على كل أموالك لم تصر على توريطه في تلك التهم؟

– لابد أن يدفع ثمن فعلته

ترقرقت الدموع في عينيها بينما تقول:

– ماذا فعل بالضبط؟

– لابد وأن أجعله عبرة لكل من يفكر في ابتزاز "حسن رشدي"

– أرجوك! اصفح عنه! .. ارحمه! .. لقد قضى معظم حياته في الغربة وكان فرحا بالعودة إلى أهله فلا تجعله يقضي ما بقي من عمره في السجن!

أشحت بوجهي بعيدا عنها بينما أقول:

– الله هو من يصفح ويرحم ويسامح

انفجرت الدموع من عينيها بينما انحنت أمامي وأمسكت بيدي تقبلها وتغرقها بدموعها بينما تقول:

– أرجوك! .. ارحمنا أرجوك!

انتزعت يدي من بين يديها في عنف بينما أقول:

– أنتم مجموعة من الرعاع ولا تستحقون الرحمة

– أرجوك! .. من أجل أبنائه

وفجأة انفجر بناتها جميعهن باكيات بينما تقول إحداهن:

– أرجوك يا عمي! .. ارحم أبي من أجل خاطرنا!

لم أشعر بأي شفقة أو رحمة تجاههم بل كان قلبي كالحجر وكل ما كان يسيطر علي آنذاك

أنه لابد من الإنتقام من الرجل .. لابد وأن يدفع الثمن .. ثمن ابتزازه لي لذا انفجرت بهم جميعا صائحا في عنف:

– لست أريد سماع كلمة واحدة!

ازداد الجميع في البكاء وعيونهم تتطلع إلي في عتاب ولم أستطع تحمل نظراتهم فاشحت بعيني بعيدا بينما أصرخ:

– أخرجوا! .. لا أريد رؤيتكم ثانية!

وخرجوا بينما يبكين وما حن قلبي عليهن للحظة وكأنما قد قد من حجر فلم أكن

أراهم سوى مجموعة من الأوغاد .. الأوغاد والرعاع

* * *

جلس المقدم شريف زيدان على أريكة فخمة في الجناح الخاص بي وجلست على أريكة مقابلة وطلبت لنا قدحين من القهوة وجلسنا نحتسي القهوة بينما كنت أرحب به ..

– مرحبا بك في جناحي المتواضع سيادة المقدم

– حفظك الله "حسن" بيك

– خيرا إن شاء الله؟

– الخير كل الخير إن شاء الله

– هل من جديد؟

– لقد قبضنا على "عباس سليمان"

– كيف وهو وكيل لشخصية سياسية هامة؟

– هراء!

– ماذا تقصد؟

– أولا أود أن أخبرك أنه لا أحد فوق القانون

– وثانيا؟

– "عباس سليمان" ليس وكيلا لأي شخصية سياسية

– هو وكيل لمن إذن؟

– ليس وكيلا لأي شخص

– ماذا تقول يا سيادة المقدم؟

– كما سمعت بالضبط

– هل تعني؟ .. هل تعني أنه ..؟

– بالضبط .. إنه مجرد نصاب

حملقت به في دهشة بالغة بينما أكرر:

– نصاب!

– إنه جزء من مؤامرة حيكت ضدك ببراعة

– لماذا؟

– ليوهمونك بأن الفساد مستشري في بلادنا

– ولماذا يفعلون ذلك؟

– إنها جزء من مؤامرة كبرى صنعها الموساد ببراعة لتكره نفسك وأهلك ووطنك

– لماذا؟

– لتترك وطنك وتذهب بأموالك إلى إسرائيل

– هل فعلوا كل هذا؟

– ولقد أوهموك أن زوجتك السابقة السيدة "سهير" خائنة ولكننا كنا نراقب كل شيء

منذ البداية وزوجتك مخلصة لك وتحبك بجنون

– الأوغاد! لقد كدت اقتلها

– الحمد لله أنك لم تفعل

– ولكن "أكرم" هو السبب في عدم قتلي لها

– لقد خشوا من إنهيار أسهم مجموعة شركاتك في البورصة

– ولماذا يخشون ذلك؟

– لانهم كانوا واثقين من قدرتهم على إقناعك من تحويل كل أموالك ومقتنياتك إلى إسرائيل وكانوا يريدون الكعكة كاملة

– ولكن لماذا أنا بالذات؟

– لأنك عقلية إقتصادية فريدة

– أشكرك على حسن ظنك بي سيادة المقدم

– إنك تستحق ما هو أكثر

– أخجلتم تواضعنا

– لقد أراد الموساد توجيه ضربة قوية للإقتصاد المصري

– لماذا يفعلون ذلك؟

– إنهم يريدوننا غارقين في مشاكلنا

– لماذا؟

– حتى لا نجد الوقت لمحاربتهم

– الأوغاد!

– ولا تنسى أن لهم فائدة مباشرة مما حدث

– كيف؟

– كانوا سيوجهون لنا ضربة قاصمة فيستولون على أربعين مليارا من الدولارات فيهدمون إقتصادنا ويضخون تلك الأموال في إقتصادهم فينتعش

– لقد أرادوا ضرب عصفورين بحجر واحد

– بالضبط

– ولكني أفقت في الوقت المناسب

– وهذا ما جعلهم يغيرون خططهم ويحاولون قتلك

– الأوغاد!

– والأن يجب أن تعرف أن وطنك يحبك ويقدرك ويحميك

– لقد علمت أن الوطن لا يقدر بثمن

أخرج المقدم شريف زيدان بطاقة أنيقة من جيب سترته ونهض من مجلسه واقترب من حسن رشدي ومد يده بها إليه يسلمه إياها بينما يقول:

– هاك رقم هاتفي لتتصل بي لو واجهتك أي صعاب في عملك

التقط الرجل البطاقة وألقى نظرة سريعة عليها ووضعها في جيب سترته بينما ينهض من مكانه قائلا:

– أشكرك يا سيادة المقدم

– الشكر الوحيد الذي أتقبله منك هو أن تعود إلى نشاطك فالوطن يحتاج للشرفاء أمثالك

شد "حسن رشدي" على يد المقدم شريف زيدان في قوة بينما يقول:

– بل يحتاج الوطن للمخلصين أمثالك .. المخلصيين أمثالك سيادة المقدم

* * *

وقف الطبيب "عادل فهمي" في قفص الإتهام في المحكمة وإلى جواره "عباس سليمان" المتهم في نفس القضية .. كانت الدموع تترقرق في عيني الطبيب بينما كانت زوجته وبناته وولده يوسف يبكون بكاء مرا خارج القفص .. كان الرجل يحاول أن يطمئنهم

ولكن دون جدوى .. هو نفسه لم يكن يملك تلك الطمأنينة في نفسه ولأن فاقد الشيء لا يعطيه فلم يستطع الرجل بث الطمأنينة في نفوسهم ..

– اطمئنوا يا بنات! سيظهر الحق بإذن الله

قالت زوجته بينما تبكي:

اطمئن يا حبيبي سنشهد نحن معك

– ليتهم يأخذون بشهادة الزوجة والأبناء

– سنبحث عن السائق في كل مكان

– لا فائدة

– لماذا؟

– لقد هرب السائق إلى اسرائيل ولن يعود .. لن يعود أبدا

قطع حديثهما صوت حاجب المحكمة يعلن بدء المحاكمة ..

– محكمة

ودخل رئيس المحكمة ومعه إثنان من المستشارين أعضاء هيئة المحكمة بينما نهض الجلوس من أماكنهم احتراما وعاد الجميع إلى حيث مقاعدهم وجلس رئيس المحكمة والمستشارين ثم أشار رئيس المحكمة إلى الحضور بالجلوس فجلسوا في هدوء وساد

المحكمة صمت رهيب لثوان قبل أن ينادي الحاجب على القضية ولم تمض دقائق معدودة حتى كان رئيس المحكمة يقول بصوته الجهوري:

– النيابة تتفضل!

نهض وكيل النائب العام تملئه الثقة بنفسه فقد كان يرى أنها قضية مضمونة للغاية بينما يقول:

– سيادة الرئيس! .. حضرات المستشارين!

– تفضل!

– القضية التي نحن بصددها اليوم قضية بسيطة للغاية و ..

– ادخل في صلب الموضوع!

– المتهم "عادل فهمي" وشريكه "عباس سليمان" الماثلين أمامكم هما عضوين هامين في مؤامرة كبرى لهدم إقتصاد البلاد .. لقد تم الإتفاق بين الطبيب "عادل فهمي" وبين ضابطين في الموساد استطاعا تجنيده ليعمل معهما لتخريب اقتصاد مصر وحاكا المؤامرة في حنكة وذكاء وأحاط الجميع برجل الأعمال الشهير "حسن رشدي" صاحب

"مجموعة شركات رشدي" الشهيرة .. أحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم .. فصار أحدهم مدير أعماله وهو المتهم الأول الهارب "دافيد حاييم" وصار أحدهم سائقه وهو المتهم الثاني الهارب "دانيال كاهان" واستعانوا بالمتهم الثالث الكومبارس الفاشل في السينما ورغم فشله الذريع في السينما إلا أنه أدى دوره بمنتهى البراعة أمام "حسن رشدي" رجل الأعمال الوطني وأقنعه أنه رجل أعمال ووكيل لشخصية سياسية هامة في مصر وأقنعه أن الفساد مستشري في البلاد وأن

القيادات السياسية تريد مقاسمته ماله ولم يكن ذلك ليحدث أبدا كما أقنعوا الرجل أن زوجته الشريفة العفيفة تخونه مما جعله يسقط في بئر اليأس ويفقد الثقة في بلاده ومواطني بلاده وعندئذ يسهل إقناعه بالهجرة والتخلي عن الوطن .. وليتهم أقنعوه بالهجرة إلى الولايات المتحدة أو إلى دولة أوربية ولكنهم أقنعوه بالهرب وليس الهجرة وإلى أين؟ .. إلى اسرائيل .. وتلك خيانة بل خيانة عظمى

وقف محامي المتهم رافعا يمينه بينما يقول:

– أعترض سيادة الرئيس

قال رئيس المحكمة في ضيق:

– فيم إعتراضك بالضبط؟

– لدينا معاهدة سلام مع إسرائيل والتوجه إليها لا يعتبر خيانة عظمى وإلا كان "حسن رشدي" متهما في نفس القضية

– إعتراض مقبول

جلس المحامي بينما أشار رئيس المحكمة إلى وكيل النائب العام قائلا:

– النيابة تتفضل!

عاد وكيل النائب العام إلى مرافعته قائلا:

– لقد أوقعوا "حسن رشدي" في فخ نصبوه له بحنكة واقتدار .. لقد أقنعوه ببيع كل أصول شركاته والهروب بأمواله إلى إسرائيل وتاه به السائق –المتهم الثاني– عمدا في الصحراء وسقط الرجل بين الموت والحياة وأكملوا المسرحية المرسومة بدقة بالغة فجاء شريكهم الرابع وهو الطبيب "عادل فهمي" الذي اتفقوا معه في الأردن حيث كان يعمل هناك وتخطى الحدود المصرية عبر مسالك مشبوهة ببراعة جاسوس قدير ووصل إليهم وأنقذهم ثم ابتز "حسن رشدي" وأخذ نصف

ثروته ثم سلم مسدسه لشريكة السائق "دانيال كاهان" ليقتل الرجل ويستولي على النصف الآخر للثروة و ..

– اعترض يا سيادة الرئيس

– فيم الإعتراض هذه المرة؟

– لقد كان الرجل بين الحياة والموت فلو أرادوا حينذاك أخذ الثروة كاملة لأخذوها وكان ذلك أسهل فلم أنقذوا الرجل في رأي النيابة؟

– هل للنيابة رد على ذلك؟

– نعم سيادة الرئيس

– تفضل!

– لقد أرادوا أخذ الرجل معهم إلى إسرائيل للإستفادة من قدراته وعبقريته الإقتصادية الفذة في بناء إقتصاد إسرائيل

قال المحامي هاتفا:

– لم حاولوا قتله فيما بعد على الطريق الإسفلتي المعبد إذن؟

نظر رئيس المحكمة نحو وكيل النائب العام وأشار إليه بإحدى راحتيه بينما يقول:

– النيابة

– لقد أفاق "حسن رشدي" من غفلته وحاول الخروج من الفخ ورفض الذهاب إلى إسرائيل وكان ذلك يهدم كامل خططهم فعدلوا تلك الخطط وحاولوا قتله

– هل النيابة تريد أن تضيف شيئا آخر

– لا يا سيادة الرئيس .. النيابة تكتفي بهذا القدر فالقضية شبه محسومة

– الدفاع يتفضل

– سيادة الرئيس .. حضرات المستشارين ترى النيابة أن القضية شبه محسومة وتحكي

لنا قصة طريفة دون أي دليل واحد حسي وملموس

رفع وكيل النائب العام يمناه بينما يقول:

– أعترض سيادة الرئيس

نظر القاضي نحوه بينما يقول:

– فيم اعتراضك بالضبط؟

– النيابة لا تحكي قصصا للتسلية وإنما تهدف إلى تحقيق الحق والعدالة وكل ما قلته موجود في محاضر الشرطة ويمثل تجميعا لأقوال أطراف القضية .. والنيابة تجد تلميحا بالإهانة في حديث الدفاع

احتقن وجه المحامي ونظر نحو وكيل النائب العام وقال:

– الدفاع لا يقصد أي إهانة ونعتذر للنيابة عما قد يكون وصلها من تلميح بالإهانة

نظر القاضي نحو المحامي وقال:

– حسنا .. فليتفضل الدفاع لإكمال مرافعته!

– لقد كان موكلي يعمل في الأردن في العشر سنوات الماضية وكان مثالا للشرف والامانة وسيرته حسنة للغاية ولدينا أوراقا تثبت ذلك

واخرج مجموعة من الاوراق وتقدم نحو رئيس المحكمة وسلمها له وهو يقول:

– ها هي يا سيادة الرئيس

تسلمها رئيس المحكمة وتصفحها سريعا ولكن وكيل النائب العام وقف من مجلسه هاتفا:

– وماذا يثبت ذلك بالضبط؟ .. أي جاسوس لابد وأن يظهر أمام الجميع حسن السير والسلوك

قال المحامي غاضبا:

– أسجل إعتراضي يا سيادة الرئيس فالنيابة تحكم على موكلي بأنه جاسوس رغم أن القضية لم يحكم بها بعد والمتهم بريء حتى تثبت إدانته

– إعتراض مقبول وعلى النيابة توخي الحذر

– النيابة تعتذر سيادة الرئيس

– إعتذار مقبول

والتفت رئيس المحكمة نحو المحامي بينما يقول:

– الدفاع يتفضل باستكمال المرافعة

واستكمل المحامي مرافعته وجاء دور المحامي الموكل عن "عباس سليمان" فصال في ساحة المحكمة وجال واستجوبت النيابة ثم المحامون الشهود ومنهم "حسن رشدي" وبعض موظفي مجموعة شركاته التي كان قد باعها لشركة متعددة الجنسيات وتوالت الجلسات وجاء يوم النطق بالحكم و ..

"حكمت المحكمة حضوريا على المتهم "عباس سليمان" بالسجن خمس سنوات مع الشغل والنفاذ وعلى المتهم "عادل فهمي" بالسجن عشرين عاما مع الشغل والنفاذ وغيابيا على

المتهمين "دانيال كاهان" و "دافيد حاييم" بالإعدام شنقا"

* * *

فتحت السيدة نادية والدة سهير الباب عندما تعالت صوت الطرقات على باب شقتها وحملقت بي مشدوهة عندما وجدتني أمامها فجأة فقالت في غضب:

– أما يكفي ما حدث؟

– ألن تدعيني للدخول؟

– ماذا تريد منا أيضا؟

– هل سنقف على الباب؟

تنحت عن الباب جانبا بينما تقول بضيق واضح:

– تفضل!

دلفت إلى الداخل وأغلقت هي الباب خلفي واتجهت إلى حجرة الضيوف وقد كنت أعرف طريقي جيدا وجلست على أريكة وثيرة وسرعان ما لحقت بي المرأة وجلست إلى الأريكة المقابلة بينما تقول في عداء واضح:

– ماذا تريد بالضبط؟

قلت في بساطة:

– قدحا من القهوة

بدا الغضب والغيظ على وجه المرأة ولكنها كظمت غيظها سريعا وذهبت تعد لي قدح القهوة وعادت بعد دقائق تحمل قدح القهوة بينما تقول في حدة:

– تفضل!

تناولت قدح القهوة ورحت أحتسيه في بطء شديد وتلذذ والمرأة تكاد تقتلني من غيظها .. تذكرت أيام خطوبتي وسهير وكيف كانت تلك المرأة تكاد تحملني عن الأرض من فرط

سعادتها لإرتباطي بإبنتها رغم أنني كنت متوسط الحال في تلك الفترة ولكنها كانت سعيدة بخطبة ابنتها وفكرة ارتباطها وتكوين أسرة جديدة .. أفقت على صوت المرأة تقول:

– ها قد احتسيت قهوتك .. ماذا تريد منا بالضبط؟ .. أما كفاك ما فعلت؟

– لقد جئت لتصحيح ما فعلت

– وهل تظن ابنتي ستقبل؟

– ستقبل بإذن الله

– بعد كل ما فعلت بها؟

– ماذا فعلت؟

– ألم تفعل شيئا؟

– كل الأزواج يتشاجرون ويختلفون

– ولكنك طعنتها في شرفها ولطخت سمعتها

– ماذا كنت لأفعل وقد رأيتها خارجة من شقة خطيبها السابق؟

– كان ينبغي أن تفهم منها الحقيقة لا أن تتسرع وتحاول قتلها

– لقد كاد الغضب يعميني و..

قاطعتني قائلة في حدة:

– وماذا تغير الآن؟

– لقد فهمت الحقيقة

– كيف؟

– لقد تأكدت من إخلاصها وحبها لي

– كيف؟

– ليس هذا هو المهم

– وما المهم إذن؟

– سأصحح كل أخطائي

– كيف؟

– سأعيدها إلى عصمتي

– والفضيحة التي تسببت لنا بها؟

– عودتها إلي يخرس الألسنة ويعيد إليها إعتبارها ويبرؤها أمام الجميع

دلفت سهير إلى الحجرة فجأة وقد كانت فيما يبدو تتنصت إلى حديثي مع والدتها وهي تقول:

– سأعود إليك لكن بشروط

– شروطك أوامر يا حبيبتي

جلست إلى جوار والدتها بينما تقول:

– شرطي الأول: مهر جديد وشبكة جديدة لا يقل كلا منهما عن عشرة ملايين جنيه

– ولكن هذا مبلغ كبير ومبالغ به كثيرا

– لابد أن أؤمن مستقبلي فلم أعد أطمئن إليك

– حسنا .. إنني أوافق فكنوز الدنيا كلها لا تعوضني عنك يا حبيبتي

– والشرط الثاني أهم من الأول

– ما هو؟

– أن نمر بفترة خطوبة أتأكد فيها أنك مازلت تحبني وتبذل قصارى جهدك لإرضائي وإسعادي

– أوافق بالطبع

– بقي الشرط الأخير والأهم

– وهو؟

– أن تذهب إلى الطبيب

– ماذا؟

– لن أعود إليك من دون أطفال

احتقن وجهي فقد كنت أرفض تلك الفكرة تماما وأعتبر الأمر إهانة لرجولتي فقلت في تردد:

– ولكن ..

– ليس من لكن .. إما أن تقبل فأعود إليك وإما أن ترفض وتنساني .. تنساني تماما

* * *

عدت إلى مرحلة تشبه مرحلة خطوبتنا أنا وسهير حبيبتي .. لقد اشترطت علي ذلك والحق يقال أن هذا كان أفضل شيء طلبته واشترطته .. فقد كنت أبذل قصارى جهدي لإسعادها وتعويضها عما فعلت بها فكانت في قمة السعادة وكنت في قمة السعادة لسعادتها عشنا فترة كانت من أجمل أيام حياتي .. عدت أرسل إليها الورود والهدايا وعادت تستقبلني بأجمل ابتسامة في الوجود

.. كنت قد نسيت تلك الإبتسامة في ذروة إنشغالي بعملي وإهمالي لها .. كانت وردة جميلة زاهية الألوان تبعث السعادة في كل من حولها ولكن كان ينقصها الإهتمام والحنان لتنضر وتتفتح وتزدهر ولأنني كنت في تلك الفترة بدون عمل فقد أوليتها جل إهتمامي وحبي وحناني فعادت إليها نضارتها وطغت علي بحنانها وأهدتني كل سعادة الدنيا .. عدنا نخرج سرا دون علم والدتها ونختلس من الدنيا لحظات السعادة والهناء .. لقد أعجبني ما يحدث كثيرا ووددت أن نطيل فترة الخطوبة

لفترة طويلة وعدت أغازلها وأسمعها كلمات الحب والعشق كنت أصطحبها معي في كل الحدائق والمتنزهات وكنا نبدو كالأطفال .. كنت أطاردها لأنال قبلة من إحدى وجنتيها فتهرب وتجري مني وأظل أطاردها إلى أن ألحق بها وأفوز بقبلتي فنرتمي سويا على الحشائش لنلتقط أنفاسنا من فرط التعب جراء الركض واصطحبتها إلى الأهرامات وامتطينا الأحصنة والإبل وذهبنا إلى الملاهي وجربنا كل الألعاب كنا وكأنما قد عدنا عبر الزمن .. استعدنا كل ذكرياتنا ولكن كانت

مطالبتها لي من آن لآخر للذهاب إلى الطبيب تكدر صفاء حياتي وإن كنت قد نجحت في مماطلتها وإقناعها بإرجاء ذلك إلى ما بعد الزواج .. اطمأنت إلي تماما وبعد فترة من الزمن طلبت هي مني إتمام زواجنا .. وتزوجنا وقضينا أجمل شهر عسل في الدنيا .. لففت معها الدنيا بدأنا بباريس عاصمة النور ثم ذهبنا إلى لندن عاصمة الضباب ومنها إلى روما حيث عبق التاريخ ثم زرنا مدريد ومنها إلى سويسرا ومنها إلى دبي لؤلؤة العرب ومن ثم عدنا إلى القاهرة .. كنت

أحب تلك المرأة بجنون .. لم أكن أتخيل حياتي من دونها .. تذكرت "أكرم شكري" .. كيف نجح ذلك الوغد في تشكيكي في إخلاصها .. كنت أرى حب الدنيا في عينيها .. كيف كنت أستطيع أن أعيش في تلك الدنيا الكئيبة من دونها؟ .. إنها كل حياتي .. كل حياتي بل وكل كياني

* * *

وعدنا من شهر العسل وكنا في قمة السعادة ومن فرط سعادتي رأيت أن أكون كريما معها للغاية وأن أسعدها قدر استطاعتي لذا فقد كنت أحتفظ لها بمفاجئة كبرى لدى عودتنا وفي السيارة في طريق عودتنا من المطار قلت لها:

– أتدرين إلى أين نحن ذاهبون يا حبيبتي؟

– ليس فرق عندي بين مكان ومكان فحيث تكون هناك تكون جنتي يا حبيبي

– ضممتها إلي بيمناي بينما أمسك مقود السيارة بيسراي وقلت لها:

– بل أنت جنتي يا حبيبتي

نظرت نحوي بحب واضح بينما تتكىء على صدري دون أن تنطق ببنت شفة فاستطردت قائلا:

– لدي مفاجأة لك

– ما هي؟

– ستعرفين حين نصل

– إلى أين؟

– إلى حيث المفاجأة

– إنني أتحرق شوقا فلتخبرني الآن!

– وكيف تكون مفاجأة لو أخبرتك؟

– أرجوك! .. أخبرني من أجل خاطري!

– خاطرك كبير عندي ولكن ..

قاطعتني قائلة في دلال:

– أرجوك!

ازددت عنادا وقلت لها:

– دقائق معدودة وسترين بنفسك

وقبل أن نصل إلى وجهتنا طلبت منها أن تغمض عينيها وعارضت في البداية ولكنها إستجابت مع إلحاحي .. توقفت بالسيارة واقتدتها خارجها بينما ما تزال مغمضة العينين وأوقفتها أمام باب فيلا أنيقة و..

– افتحي عينيك يا حبيبتي!

فتحت عينيها وحملقت في الفيلا بإنبهار بينما أقول:

– فيلتنا .. ما رأيك؟

– رائعة!

– هل أعجبتك؟

– إنها تحفة فنية رائعة

– لقد كتبتها بإسمك كهدية بمناسبة زواجنا

ارتمت على صدري وقبلت كلتا وجنتي بينما سعادة الدنيا ترتسم في عينيها وقالت:

– حفظك الله لي يا حبيبي

أمسكت يدها أصطحبها معي إلى داخل الفيلا بينما أقول:

– وستعجبك من الداخل فلقد كلفت أكبر مكتب للديكور بفرشها وتصميم ديكوراتها

– قالت في سعادة:

– ما دمت معي بها يا حبيبي ستكون جنة

قلت في مرح:

– المهم ألا تكوني كحواء فتتسببين في طردي من الجنة

ضحكت بينما تقول:

– حواء طردت من الجنة أيضا مع آدم

ومرت الأيام وكانت تلك أسعد أيام حياتي وكنت أفاجئها كل يوم تقريبا بمفاجأة جديدة فتارة أحضر لها سيارة فخمة كهدية وتارة سوارا ذهبيا وتارة قرطا ماسيا .. أغرقتها بالهدايا وأوليتها جل إهتمامي ولكن مع الوقت ذهبت السكرة وجاءت الفكرة وبدأت أفكر في حالي .. هل سأظل هكذا من دون عمل؟ .. كيف سأبدأ من جديد بعد أن بعت مجموعة شركاتي التي بنيتها بجهدي ورويتها بعرقي ودمي وترعرعت أمامي بكدي وتعبي؟ .. ولأن العبد في التفكير

والرب في التدبير فقد رتب الله القدير كل شيء بأفضل مما كنت أتمنى وبطريقة لم أكن أتوقعها أبدا وإذ بي أفيق من شرودي وتفكيري على صوت رنين جرس الهاتف فتوجهت نحوه ورفعت السماعة نحو أحد أذني ..

– ألو

– مرحبا "حسن" بيك

– من معي؟

– أنا "عاطف علوي"

بحثت في ذاكرتي سريعا عن هذا الإسم ولما لم تسعفني ذاكرتي أجبته قائلا:

– من؟

– ألا تذكرني "حسن" بيك؟

– عفوا فمشاغلي كثيرة وذاكرتي ضعيفة بعض الشيء و ..

– لا عليك "حسن" بيك .. كان الله في عونك!

– فلتذكّرني!

– إنني مدير الشئون القانونية بمجموعة شركاتك السابقة

– آه .. عفوا .. لقد تذكرتك الآن

– إنني أطلب من سيادتكم موعدا لمقابلتكم

– لا وقت لدي و ..

– الموضوع هام بل وبالغ الأهمية

– بخصوص؟

– بخصوص مجموعة شركاتك

– لقد بعت المجموعة ولم تعد لي علاقة بها بالمرة

– لدي مفاجأة لسيادتك

– أهي سارة أم محزنة؟

– حقيقة لست أدري

قلت في حدة:

– ماذا يعني ذلك بالضبط؟

– كونها سارة أو محزنة يتوقف على نظرتك للأمور

– حسنا فلتقابلني في الغد عند العاشرة صباحا

– أين؟

– في فيلتي الجديدة

– العنوان من فضلك!

– ألا تعرف العنوان؟

– وكيف لي أن أعرف؟

– كما عرفت رقم هاتف فيلتي الجديد

– حسنا سأكون عندك في العاشرة .. في العاشرة تماما

* * *

في اليوم التالي نسيت تماما موعد الرجل الذي جلس في انتظاري طويلا في فيلتي وقدم له الخدم شرابا مثلجا ثم شرابا ساخنا ولما يأس من مقابلتي انصرف وحاول الإتصال بي كثيرا في ذلك اليوم وخلال الأيام التالية دون

جدوى فقد أغلقت هاتفي المحمول تماما خلال تلك الأيام .. كنت قد اتفقت مع زوجتي أن نذهب في ذات اليوم إلى الطبيب وذهبنا وحدث ما كنت أخشاه في أسوأ كوابيسي وكشف علي الطبيب وأجرى التحاليل والفحوص وأصررت أن يتم كل شيء في ذات اليوم ودفعت للجميع بسخاء حتى لا أظل يوما واحدا في قلقي وجاءت النتيجة وجلست أمام الطبيب أنا وزوجتي ونظر الطبيب الطاعن السن في التحاليل

والفحوص ونظر نحوي في حزن وأسى وقبل أن ينطق فهمت كل شيء ..

– للأسف .. لا يمكنك الإنجاب يا ابني

أحسست بقلبي يسقط بين قدمي وظهر الهلع في عيني بينما أهتف به:

– كيف؟

– إنه أمر الله

– ألا يوجد أي علاج؟

– للأسف يا ابني

– إنني مستعد لدفع كامل ثروتي

– حالتك ميؤس منها يا ابني

– ألا يمكن أن أسافر إلى الخارِج و .. ؟

– الطب يقف عاجزا في حالتك تلك يا ابني

– ولكن الطب متقدم في ألمانيا وقد ..

– مستحيل!

– والعمل؟

– ليت الأمر بأيدينا

– وماذا عن أطفال الأنابيب؟

– لا تصلح في حالتك يا ابني

– لماذا؟

– ليست لديك حيوانات منوية من الأساس

– سأذهب لجميع الأطباء في مصر والعالم لعل أحدهم يجد لي حلا

– لا تحاول يا ابني! فمن يمنحك الأمل يخدعك ويريد استنفاذ أموالك

نظرت إلى زوجتي فرأيت الإرتياع باديا في عينيها اللتان تترقرقان بالدموع فصرخت بها قائلا:

– هيا بنا سنذهب إلى طبيب آخر

ونظرت نحو الطبيب بينما أستطرد:

– فذلك الطبيب وغد لا يريد سوى إحباطي

وخرجت من لدن الطبيب وأغلقت باب غرفته في عنف متعمد وأمضينا الأيام التالية لدى الأطباء الذين أكدوا لي الحقيقة المرة المؤكدة والتي مفادها إنني لن أنجب .. لن أنجب أبدا

* * *

فجأة تحولت حياتي إلى جحيم .. لقد ابتسمت لي الدنيا كثيرا ولم يكن من المنطقي أن تظل تبتسم وتبتسم .. صارت زوجتي

تحملني المسئولية كاملة عن عجزي عن الإنجاب وكأنني قد خلقت نفسي .. أليس الله من خلقني؟ وهل تقول الجبلة لجابلها لماذا صنعتني هكذا؟ .. هل هذا هو جزائي لأنني بكل قلبي أحببتها؟ هل هذا جزائي لأنني كنت أبذل كل جهدي لإسعادها؟ .. لقد شبعت زوجتي من كل شيء ولم تكن ترى سوى في الأمومة سعادتها .. ولكن ما ذنبي أنا؟ .. أليس الله هو من يوزع الأرزاق؟ أليس البنين كالمال يتبع الرزق؟ .. صارت زوجتي تطلب الطلاق مني كلما رأتني وصرت في

البداية ألاطفها وأجذل لها العطايا والهدايا لأنسيها أمومتها ولا فائدة .. لم تنس أبدا .. صرت أتحاشاها بعد ذلك وأتحاشى رؤيتها وصرت أنام بمفردي في حجرة بعيدة عنها وأغلق الباب علي وأعيش مع نفسي شاردا حزينا .. أعاتب ربي حينا وأعاتب نفسي أحيانا لشروري وبعدي عن الله .. عشت أياما من العذاب والشجار الدائم مع زوجتي .. أيام أنستني كل سعادتي .. كرهت نفسي وكرهت زوجتي .. نعم كرهتها فهي دوما تنكأ جروحي وتدوسها بعنف .. دائما ما كانت

تذكرني بعجزي بل تعايرني بعجزي وليس الذنب ذنبي .. كنت قد أغلقت هاتفي لعدة أيام ولما فتحته فوجئت بمدير الشئون القانونية "عاطف علوي" قد اتصل بي أكثر من خمسين مرة .. تذكرت موعدي مع الرجل وكيف سقط من ذاكرتي فخجلت من نفسي .. ما ذنب الرجل في مشاكلي؟ .. قررت الإتصال به والإعتذار له لما بدر مني ..

– ألو

– أين أنت "حسن" بيك؟

– إنني آسف للغاية هناك ظروف طارئة و ..

– لا عليك "حسن" بيك

– يمكننا تحديد موعد آخر .. ماذا عن الغد؟

– لا وقت لدينا "حسن" بيك .. ماذا عن اليوم؟

– ولكن ..

– صدقني الموضوع خطير "حسن" بيك ولابد أن نتصرف بسرعة

قلت في قلق:

– ما الموضوع بالضبط؟

– الموضوع طويل ويحتاج إلى ..

قاطعته قائلا في حزم:

– حسنا .. فلتقابلني في فيلتي بعد ساعة

– سأكون في موعدي بالضبط "حسن" بيك

ولم تمض الساعة حتى كان الرجل يجلس على الأريكة المقابلة أمامي وقدمت له الخادمة شرابا مثلجا وقلت له بينما يبدوالقلق في وجهي:

– خيرا أستاذ عاطف؟

– خيرا إن شاء الله "حسن" بيك

وتنحنح الرجل وكأنما يستعد لإلقاء محاضرة طويلة قبل أن يستطرد قائلا:

– "حسن" بيك .. ماذا تمثل لك "مجموعة شركات رشدي"؟

– لقد أخبرتك أن علاقتي بتلك الشركات قد إنتهت

– وهل أنت سعيد بذلك؟

– بالطبع لا فقد بعتها نتيجة لمؤامرة تعرضت لها وفخ سقطت به ولكني سأبني مجموعة أكبر وأضخم

– إذن وبناء على ما أخبرتني فلدي لك مفاجئة قد تبدو سارة

– الحمد لله أنه ما يزال في تلك الدنيا شيء سار فمنذ فترة والدنيا توجه إلي ضربات موجعة

– لقد ألغت هيئة سوق المال الصفقة وكأنها لم تكن

أحسست بقلبي يرقص من الفرحة وترقرقت عينيّ بدموع الفرحة وبدا الذهول على وجهي بينما أحملق به غير مصدق لما يقول فقد كان ذلك الخبر بصيص أمل ونقطة مضيئة في ظلام وخضم ما أعاني من مشاكل وأزمات ..

كان خبرا لم أتوقعه ولم أحلم به قط ولو في خيالي وهتفت بالرجل قائلا:

– هل أنت واثق مما تقول؟

– تمام الثقة "حسن" بيك

– ولكن كيف؟

– يبدو أننا في ذروة عجلتنا لبيع الأسهم ارتكبنا بعض الأخطاء وخالفنا شروط هيئة سوق المال ولما اكتشفوا تلك الأخطاء والمخالفات أصدروا قرارا بإلغاء الصفقة واعتبارها كأن لم تكن

– إنها مفاجأة مذهلة!

– في تلك الحالة لدينا طريقين

– ما هما؟

– الأول أن نتفق مع الشركة متعددة الجنسيات فنعيد إليها المال وإلا ..

– وإلا ماذا؟

– وإلا لو أصرت الشركة على إتمام الصفقة فنحن مضطرون لإعادة إجراءات البيع

– قلت في قلق:

– ماذا يعني ذلك؟

– لا تقلق "حسن" بيك فموقفنا هو الأقوى في كلتا الحالتين وسنتمم ما تريد بالضبط

– أريد إسترداد شركاتي بالطبع

– إذن سنستردها .. طلباتك أوامر "حسن" بيك

– منذ الآن ستكون مديرا لأعمالي والذراع اليمنى لي!

– لست أستحق كل تلك الثقة "حسن" بيك

– بل تستحق ما هو أكثر .. إنني متفائل بك .. متفائل بك للغاية

* * *

ذهبت إلى زوجتي بعد تفكير طويل مني وقد قررت بيني وبين نفسي أن أطلقها وأعيش مع نفسي يكفيني عملي وشركاتي ونجاحاتي .. فالدنيا لا تعطينا كل شيء .. لقد أهداني الله المال وحرمني البنين وأعطى الله البنين لآخرين وحرمهم المال لابد وأن أشكر الله على عطاياه وأكتفي بنصيبي في تلك الدنيا .. كان هناك حلا واحدا أمامي وهو أن أتبنى طفلا ولكني كنت أرفض ذلك الحل تماما .. كنت أرفض أن يأتي طفل ليس من دمي ولحمي

وليس من صلبي فيرث كل أموالي وأملاكي .. طرقت باب غرفة نومنا وحين دخلت لدهشتي وجدت زوجتي ليست مكتئبة ككل يوم بل كانت متهللة للغاية .. ترى ماذا حدث؟ .. هل جنت تلك المرأة؟ .. للنساء أفعال غريبة .. أعترف أنني لم أفهم تصرفات المرأة أبدا .. فهي فجأة سعيدة وفجأة مكتئبة كئيبة تبعا لهرموناتها .. لست أدري .. وقبل أن أنطق وأعلن لها مكنون صدري وجدتها تقترب مني وتضم نفسها إلى صدري في دلال بينما تقول:

– لدي مفاجأة ستسعدك

– لم يعد في الدنيا ما يسعدني

– حتى لو أخبرتك أنك ستصير أبا؟

إتسعت عيناي دهشة بينما أقول:

– كيف؟

– هناك طبيب سيجري لك عملية بسيطة و ..

– ولكن معظم الأطباء أكدوا أن ذلك مستحيل

– إنه طبيب عبقري يجري أبحاث جديدة

– ولكن ..

– ليس من لكن .. لقد أجرى العملية لرجل في نفس حالتك ونجحت نجاحا ساحقا ولكنها مكلفة بالطبع

– إنني أوافق ولو تكلفت نصف ثروتي

– ستتكلف عشرة ملايين من الجنيهات فقط

– موافق .. سأدفع عمري لكي أنجب منك ورقص قلبي .. رقص في منتهى السعادة والحبور

* * *

لم يمض علينا العام حتى كان لدينا طفل وطفلة توأمان جميلان أسميتهما عمرو وغرام فحين يعطي الله يعطي بكرم وسخاء .. يفتح يده فيشبع كل حي رضى .. صار الطفلان كل حياتي .. أحببتهما من كل قلبي كما لم أحب أحدا من قبل .. كنت أداعبهما وألاعبهما بل كنت ألعب معهما كطفل صغير .. تغيرت حياتي تماما .. أسندت جل أعمالي إلى مدير مكتبي "عاطف علوي" لأتفرغ لأبنائي .. جلبت لهما لعب الدنيا .. كنت أراهما كنبتتين تنموان أمام عيني مع الأيام

فكبرا وترعرعا وازددت تعلقا بهما فصارا كل حياتي ومرت السنوات وصار طفلي شابا يانعا وطفلتي فتاة جميلة رقيقة وقد تعلقت بي كثيرا فتعلقت بها أكثر وصارت كل حياتي أما عمرو فقد انشغل عني بأصدقائه من الشباب والفتيات .. كنت عائدا من عملي في السابعة مساء ذات يوم ووجدت غرام تجلس كعادتها بمفردها في شرفة تطل على الحديقة و ..

– لماذا تجلس حبيبتي دوما وحيدة؟

– لأن أبي حبيبي تأخر عليّ

توجهت نحوها وقبلت وجنتيها بينما أربت على أحد كتفيها قائلا:

– وإلى متى سيعيش أبيك ليسعد فتاته الجميلة؟

– أطال الله في عمرك يا أبي! .. أرجوك لا تتحدث بمثل تلك الطريقة!

جلست إلى المقعد المقابل لها بينما أقول:

– كل بشر فان يا ابنتي

– لو نالك مكروه سأموت يا أبي

– أبعد الله الشر عنك يا ابنتي! .. إطمئني! فلست أنوي ذلك إلا بعد أن أرى ابنتي

حبيبتي عروس جميلة وأسلمها لعريس أجمل يصونها ويحفظها بداخل عينيه

– لن أتزوج يا أبي

قلت في جزع:

– لماذا يا حبيبتي؟

– لست أجد في تلك الدنيا من هو مثلك

– ستجدين من هو أفضل مني

– ليس في مثل وسامتك ولا قلبك الحنون يا أبي

نهضت ونهضت الفتاة بدورها وتوجهت نحوها وضممتها لصدري بينما اقول:

– ما أحببت قدر ما أحببتك قط يا بنيتي

* * *

كان عمرو يحاول التسلل خارجا من المنزل حين لمحته في مساء ذات يوم بينما كنت أعلى الدرج في الطابق الثاني و ..

– عمرو!

توقف الفتى وقد ظهر على وجهه الضيق كما لو أنني شرطي وقد قبضت عليه متلبسا

بجريمة ما ونظر إلى أعلى الدرج نحوي بينما يقول:

– نعم يا أبي

– انتظر يا ابني!

وهبطت درجات السلم متجها نحوه وسمعته يغمغم في ضيق:

– محاضرة كل يوم

اقتربت منه بينما أقول:

– عمرو حبيبي إلى أين أنت ذاهب؟

– سأسهر مع أصدقائي

– كل يوم يا عمرو؟

– أنا الآن في إجازة آخر العام ولا توجد دراسة و ..

وضعت إحدى راحتي على كتفه بينما أقول:

– إنك تسهر يوميا حتى الفجر

– وما المشكلة في ذلك

أبعدت يدي عنه بينما أقول:

– المشكلة أنني لم أعد أراك يا ابني

– كل أصدقائي يسهرون ويمرحون

– ولكن ذلك مبالغ فيه يا ابني

– لقد تعبنا كثيرا في الثانوية العامة ونريد أن نرفه عن أنفسنا و ..

– أما آن الآوان يا عمرو؟

– لم يا أبي؟

– لقد كبرت الآن وينبغي عليك أن تعرف كل شيء عن شركاتك وأملاكك يا ابني

– البركة بك يا أبي

– وهل سأعيش مدى الدهر يا ابني؟

– أطال الله في عمرك يا أبي

– مهما طال عمري سينتهي يوما

– لا تقل هذا يا أبي!

– ولو لم أقل فهل من مهرب من الموت؟

بدا الضيق على وجهه بينما يقول:

– لماذا الحديث عن الموت الآن يا أبي؟

– لأنني تعبت كثيرا لأبني لك امبراطورية من الشركات و ..

– إنني أقدر ما فعلت من أجلنا و ..

– ولكنك لا تهتم و ..

– أبي! .. أرجوك! .. إنني خارج للتو من فترة الثانوية العصيبة وليس هذا وقتا مناسبا لما تريد

– ومتى الوقت المناسب في رأيك يا ابني؟

– بعد تخرجي من الجامعة

– ولكنني اشعر أن العمر لن يمتد بي إلى ذلك الحين يا ابني

ارتمى عمرو في حضني وترقرقت الدموع في عينيه بينما يقول:

– أرجوك! .. لست أتخيل الحياة بدونك يا أبي

– ولا أنا .. ولا أنا يا ابني

* * *

كنت أجلس شاردا في مكتبي أفكر في هاجس الموت الذي انتابني فجأة ولا أدري له سببا وأخذت أستغفر الله وأتوب إليه في كل ما فعلت في حياتي وأعده أن أصلح من حالي وأحاول على قدر إمكاني تصحيح أخطائي حين أفقت على صوت طرقات هادئة على مكتبي أعرفها جيدا فهي طرقات سكرتيرتي الحسناء و ..

– تفضل

دلفت السكرتيرة وأغلقت الباب خلفها واقتربت من مكتبي بينما تقول:

– السيد "رمضان الشناوي" يطلب مقابلتك يا "حسن" بيك

قلت في حيرة:

– من "رمضان الشناوي" هذا؟

– إنه رجل أعمال و ..

– هل حددنا له موعدا سابقا؟

– لا يا "حسن" بيك

– إذن فلن أقابله

– ولكنه مصر و ..

صرخت بها قائلا:

– ماذا يعني ذلك؟

– آسفة "حسن" بيك

وهمت السكرتيرة أن تنصرف فهتفت بها:

– انتظري!

التفتت نحوي بينما تقول:

– كما تأمر "حسن" بيك؟

– ماذا يريد الرجل بالضبط؟

– يقول أنه يريدك في أمر هام

– أي أمر هذا؟

– أمر يتعلق بالحياة والموت

إجتاح نفسي قلق عميق على ذكر الموت فقلت لها:

– أدخليه إذن!

– كما تأمر "حسن" بيك

ومضت السكرتيرة خارجة ولم تمض لحظات حتى كان الرجل يطرق باب غرفة مكتبي و ..

– تفضل!

ودلف الرجل إلى الغرفة ولم التفت إليه في البداية فقد كنت مشغولا بتصفح بعض الأوراق الهامة والتوقيع عليها ولما رفعت عيني عن أوراقي رأيت الرجل يوليني ظهره وهو يغلق الباب بالمتاريس فتعجبت من ذلك

وصعد قلقي إلى ذروته فنهضت عن مقعدي وحملقت في وجه الرجل الذي نظر نحوي للتو بينما يخرج مسدسه من جيب سترته وتذكرت الرجل على الفور .. لم يكن "رمضان الشناوي" ولا رجل أعمال كما أخبرتني السكرتيرة لقد كان آخر شخص في الدنيا أود رؤيته كان رجلا نسيته تماما في ذروة أعمالي وانشغالي .. كان رجلا من الماضي .. كان الطبيب "عادل فهمي" ولكنه كان مختلفا فقد ظهرت عليه آثار الزمن وخط الشيب فوديه وانتفخت عينيه وظهر السواد

حولهما كثيفا .. حملقت به مشدوها ورأيت الشر في عينيه وتصاعد القلق في أعماقي وظهر الخوف جليا في عيني بينما أحملق في مسدسه الذي يوجهه نحوي وعلمت حينذاك أنني هالك لا محالة .. علمت لماذا تجتاحني هواجس الموت في الأيام الأخيرة .. هتفت بالرجل في هلع قائلا:

– ماذا ستفعل؟

ابتسم في سخرية بينما يقول:

– ماذا تظنني أفعل؟

قلت في بلاهة واضحة:

– هل ستقتلني؟

– سأقتلك بالطبع

– لماذا؟

– عجبا! .. أتسألني بعد أن أضعت عمري؟

– سأعوضك

– كيف؟

– سأعطيك ما تريد من المال

– وهل يعوضني المال عن عمري؟

– ستعيش غنيا لبقية عمرك

– وكم بقي لي لأعيش من عمري؟

– سيمتد بك العمر طويلا بإذن الله

– لقد سلبتني عشرين عاما ظلما من عمري

– سأعوضك .. أقسم سأعوضك

– وماذا بقي لي لأعيش من أجله وقد سلبتني أجمل أيام عمري

– ستعيش من أجل أولادك وزوجتك

– لم يبق لي من العمر سوى أرذله

– لماذا تقضي ما بقي لك من العمر في السجن؟

– لقد تعودت على السجن حتى صرت لا أريد عنه بعدا

– قد يعدمونك لقتلي

– ليتهم يفعلون ليريحوني من عذابي!

– اسمعني أرجوك! .. سأهديك ما تريد

– وأنا سأهديك رصاصة تحمل حقد عشرين عاما .. عشرين عاما من السجن .. عشرين عاما من العذاب .. عشرين عاما من الظلم

ومد يده بالمسدس وأطلق رصاصة نحوي ومددت كف يدي اليمنى نحو المسدس وكأنني أشير لتلك الرصاصة أن تتوقف ولكنها لم تستمع لي بل واصلت طريقها نحوي وانغرست في جسدي .. وراحت تشق

طريقها نحوي ومن ثم شقت طريقا لها في أعماقي

* * *

يقولون "الثالثة ثابتة" وها هي المرة الثالثة التي أقترب فيها كثيرا من الموت فهل يصدق ذلك المثل وتكون تلك هي نهايتي؟ .. لقد عدت إلى هوتي المظلمة ولكني أشعر أن تلك المرة تختلف عن المرتين السابقتين .. لا أدري لماذا .. وها روحي تتهادى منحدرة لأسفل

الهوة التي تبدو كأنها أبدية بلا قرار أو نهاية .. ترى هل سأخرج منها تلك المرة كالمرتين السابقتين أم تلك هي محطتي الأخيرة؟ .. هل سأعود إلى جسدي ثانية أم أتركه للفناء تلك المرة وأنطلق لألقي مصيري المحتوم الذي أعرفه جيدا؟ .. جهنم كما تعلمون .. يكفي ظلمي لهذا الرجل الذي نسيته في السجن لعشرين عاما للدفع بي وإلقائي في قاع جهنم .. لقد دمرت كل حياته واتهمته ظلما وطغيانا بعد أن أنقذني .. ولكن هل أنقذني مجانا؟ .. ألم يبتزني ذلك الوغد؟ .. ولكن

لكل جريمة عقاب مناسب يحقق العدل .. فهل يكون عقاب الإبتزاز عشرين عاما من السجن والعذاب؟ .. نعم فهو لم يبتز شخصا عاديا .. لقد ابتز "حسن رشدي" أكبر رجل أعمال وأعظم عبقرية إقتصادية في مصر .. نظرياتي تدرس في كلية الإقتصاد رغم أنني لم أرتد تلك الكلية ولم أتخرج منها .. ولكن ماذا أنا الآن؟ .. مجرد حفنة من التراب سرعان ما تندمج وتراب الأرض وأصير مجرد ذكرى .. يا للإنسان! يظن نفسه عظيما وإذا هو حفنة من التراب .. يظن نفسه شيئا وإذ

به لا شي .. لا شيء بالمرة .. لست أدري لم نفعل هكذا بأنفسنا؟ .. لم نظلم بعضنا بعضا؟ .. أليس إله واحد خلقنا؟ .. أليس أب واحد لكلنا؟ .. لماذا لا نضع أنفسنا في ذات مكان من نظلم؟ .. لماذا إذا قدرنا على الظلم لا نذكر قدرة الله علينا؟ .. هل صرت الآن واعظا وفيلسوفا؟ .. هل صرت حكيما بعد فوات الآوان؟ .. لماذا لم أذكر نفسي بذلك وأنا مازلت بعد في الجسد؟ .. ولكن كفاني أقول لكم ذلك حتى تتعلموا مني فلا

تكرروا أخطائي حتى لا تنالوا نفس مصيري

.. مصيري الذي أستحقه .. أستحقه بجدارة

* * *

أسرعت زوجتي تحث الخطا في طرقات المستشفى نحو حجرة العمليات وخلفها أبنائي عمرو وغرام يحاولان اللحاق بها وما أن وصلت زوجتي إلى حجرة العمليات حتى نظرت عبر الزجاج الكثيف في الجزء الأعلى من باب الحجرة تسترق النظر علها تجد ما

يطمئنها عليّ ولكن من دون جدوى .. كانت ترى الأطباء وهم يلتفون حول جسدي ويجرون لي جراحة دقيقة لإستخراج الرصاصة من جسدي .. وما هي إلا لحظات حتى اقتربت منها إحدى ممرضات المستشفى ودفعتها برفق بعيدا عن باب غرفة العمليات بينما تقول:

– ممنوع يا سيدتي

ابتعدت عن باب الغرفة بينما تترقرق الدموع في عينيها ومن بين دموعها رأت غرام التي كانت تبكي بمرارة بينما يحاول عمرو أن

يهدئها فاتجهت نحوها وضمتها إلى حضنها وكلا منهما تبكيان في مرارة ولم يستطع عمرو أن يظل متماسكا فاطلق لدموعه العنان فانطلقت تغرق وجنتيه بغزارة وتركت الأم ابنتها وراحت تضم ابنها لحضنها وظلا لفترة ليست بالقصيرة يبكيان وينشجان و ..

– لابد وأن تكون قويا يا عمرو! .. أنت رجل يا ابني

– أبي هو كل حياتي يا أمي

ربتت الأم على كتفه بحنان بينما تقول:

– سينجو بإذن الله يا ابني

قطع حديثهما خروج الطبيب من حجرة العمليات فأسرعا نحوه وأسرعت غرام من خلفهما ..

– طمئني أيها الطبيب!

– كان بودي ولكن للأسف!

نظر الجميع نحوه بذهول غير مصدقين بينما يستطرد:

– البقاء لله

وصرخت سهير وصرخت غرام وصرخ عمرو صرخ الجميع كما لم يصرخوا من قبل وانهمرت الدموع غزيرة في ردهة المستشفى

وفجأة خرجت الممرضة من غرفة العمليات تهرول نحو الطبيب قائلة:

– لقد عاد النبض للمريض

نظر إليها الطبيب وكأنما ينظر إلى بلهاء أمامه بينما يهتف بها:

– ماذا تقولين:

– صدقني أيها الطبيب

– فيم أصدقك؟

– لقد عاد النبض فجأة

– كيف؟ .. لقد حاولنا إعادة النبض بكل طريقة ممكنة ولم يستجب المريض حتى يئسنا منه تماما

– إن كنت لا تصدقني فلترى بنفسك

– هل جننت؟ .. ماذا تريدين مني أن أرى؟

اندفعت غرام نحو الغرفة ولم تنتظر الطبيب بينما تسيل دموعها في غزارة وما لبث الطبيب أن حسم أمره أيضا وعاد إلى غرفة العمليات والجميع خلفه وحملق في شاشات الأجهزة المتصلة بي مشدوها وكأنما لا يصدق عينيه وقال في ذهول:

– إنني لم أرى مثل ذلك في حياتي .. لم أرى مثل ذلك في حياتي قط .. ما حدث معجزة .. معجزة بكل المقاييس

* * *

كان لعودتي للحياة قصة طريفة سأقصها عليكم وإن كانت لا تصدق .. لست أدري كيف أقنعكم بها ولكن أقسم لكم أن هذا ما حدث .. لا أدري كيف ولكنه حدث .. قد يكون ما حدث أضغاث أحلام فلست نبيا

أو تقيا ليحدث معي ما حدث ولكنه قد حدث .. كانت روحي تتهادى في الهوة اللانهائية كورقة تحملها الريح ومر بي الوقت لا أشعر به فلم أكن تحت حكم الزمن فالروح ليست كالجسد لا يسيطر عليها وقت ولا زمن ولا تكبر ولا تشيخ بل تظل خالدة .. كان كل تفكيري منصبا على مصيري والمكان الذي ستقضي به روحي خلودها الأبدي وكان المكان الأقرب إلى ذهني هو جهنم كما تعلمون .. جهنم وبئس المصير .. ولم أتخيل مصيرا آخرا غير ذاك المصير

فاضطربت روحي كثيرا ولكن طال بي الوقت ولا شيء يتغير ما زلت غارقا في الظلام .. بدأ الملل يزحف إلى روحي رويدا رويدا .. هل سيطاردني الروتين حتى في الآخرة بعد وفاتي؟ .. لماذا لا يحاسبونني .. صرخت بأقصى قوتي:

– حاسبوني أرجوكم!

ولكن ليس من مجيب .. تذكرت المثل القائل: وقوع البلاء ولا انتظاره .. شعرت كم هو صادق ذلك المثل عندما شعرت بالإضطراب الشديد الذي أصاب روحي

ولكن فجأة إذا والمشهد المحيط بي يتغير تماما .. يبدو أنني على لقاء مع شخصية هامة .. شخصية نورانية هامة وصلت إليها روحي فجأة ولا أدري كيف .. وجدت نفسي أمام ملاك ينبعث منه نور شديد لم أر مثله من قبل

– من أنت؟

– لا تسل عن إسمي!

– لماذا أنا هنا؟

– لأنك قد مت

– هل سأظل في ظلام دامس للأبد؟

كادت روحي ترقص من الفرحة حين قال:

– لا بالطبع

– أين مكاني إذن؟

انتقل بي بسرعة تفوق سرعة الضوء بمراحل وإن لم أجرب سرعة الضوء من قبل حتى أحكم ولكن هكذا كان إحساسي ووجدت روحي فجأة تحلق مع الملاك فوق الجحيم حيث كانت النيران تستعر في أجساد الأشرار فتشويهم ولا تلتهمهم ولا تدعهم يموتون أو ينالون قسطا من الراحة .. بكاء وعويل ودود لا يموت .. صوت عذابهم الرهيب

يلهب روحي فيذيبها بأكثر مما تفعل النيران تحتي رغم أنها تبعد عني أميال وأميال وكأنني قد هبطت في مركز الشمس فجأة و ..

– هذا هو المكان المعد لك مع إبليس وجنوده

انقبضت روحي بينما أقول بصعوبة بالغة:

– لماذا؟

– قلبك مليء بالشر لذا فمكانك في جهنم

– ابعدني من هنا أرجوك!

لم أكد أنهي كلماتي حتى وجدت روحي تستقر أمام الملاك في موضعي الأول فاستطردت قائلا:

– يا له من عذاب! .. يا له من مكان بشع!

– ولكنه مكانك

قلت متعجبا:

– جهنم مكاني؟

– هل ظلمناك؟

– لا .. ولكن ..

– ولكن ماذا؟

– لقد كنت شريرا حقا ولكني تبت إلى الله واستغفرت وطلبت رحمته قبل أن أموت والتائب من الذنب كمن لا ذنب له

– ذاك ما حيرنا

– لماذا؟

– لقد عشت ومت شريرا باغيا وكان عدل الله يقتضي أن تذهب إلى جهنم ولكنك تبت واستغفرت في اللحظة الأخيرة فصرت مستحقا لرحمة الله

عاودني الأمل في رحمة الله فقلت:

– أرجوك أريد فرصة أخرى

– لقد أمر لك القدير بفرصة أخرى بالفعل ولكنها فرصة أخيرة

قلت في فرح شديد غير مصدق:

– سيمنحني الله فرصة أخرى؟

– بالرغم من علمنا أن الذين يرتاحون للشر في الشر يشيخون

– لا أرجوك! .. أعدك أن أتغير وأغير هذا المبدأ تماما

– أتمنى ذلك .. فتلك فرصتك الأخيرة

– ولكن كيف ستمنحونني تلك الفرصة وقد مت؟

– ستعود للحياة

– كيف؟ هل من أحد قد مات وعاد للحياة؟

– إطمئن فما زال بك الرمق

وطافت روحي محلقة بأمر من الملاك لتعود إلى جسدي الذي تركته في غرفة العناية المركزة خلفي ورأيت زوجتي وأبنائي يبكون ويولولون خارج غرفة العناية المركزة والطبيب يخبرهم بوفاتي وشعرت بالحنين إليهم جميعا وودت أن أضمهم إلى صدري وأطمئنهم وأهدييء من روعهم ولكنني لم أستطع فقد

كانت روحي غير مرئية كالهواء تماما فأسرعت نحو حجرة العناية المركزة ونظرت وإذا بجسدي مسجّى على الفراش ومغطى بملاءة بيضاء ناصعة وملامح الممرضين والممرضات تنطق بالأسى .. التصقت بروحي في جسدي وفجأة عاد النبض لقلبي وبدأت الأجهزة تصدر صوت نبضاتي ومددت يدي أرفع الملاءة التي تكاد تكتم أنفاسي وتخنقني عن وجهي وحملقت إحدى الممرضات بي وكأنها ترى شبحا ولكنها تمالكت نفسها سريعا وأسرعت نحو الطبيب تستدعيه وتخبره

بالمفاجأة بل المعجزة .. وما حدث كان بالفعل معجزة .. معجزة بحق

* * *

عادت روحي إلى جسدي وأفقت قليلا ثم سقطت ثانية في غيبوبة ظللت بها لأيام عدة فلا تنسوا أنني كنت مصابا برصاصة مرت إلى جوار القلب تماما وحطمت في طريقها الكثير من أوردتي وشراييني .. فذلك الطبيب الوغد "عادل فهمي" فشل حتى في إصابة قلبي .. إنه طبيب فاشل في كل شيء فيما يبدو .. كل ما حدث كان بسببه .. فلو

وافق وأخذ ربع ثروتي لتركتها له عن طيب خاطر .. أما تكفيه عشرة ملايين دولار دفعة واحدة؟ .. إنه الطمع .. الطمع هو الذي أضاع حياته وكاد يودي بحياتي .. أفقت بعد عدة أيام ورأيت الفرحة في عيون زوجتي وأبنائي .. كانت الفرحة تتجاوز عيونهم وتملأ قلوبهم تماما .. كانت دموع الفرحة تترقرق في عيونهم وبخاصة غرام ابنتي حبيبتي التي أحبها من كل قلبي بل أعشقها وأعشق روحها الجميلة وأعشق حنينها الذائد تجاهي وأعشق تعلقها بي .. كانوا جميعا ملتفين حولي ولم

يتركوني لثانية واحدة وحدي طوال مدة غيبوبتي ثم طلب منهم الطبيب أن يلتزموا بمواعيد الزيارة بعد أن اطمأنوا علي فالتزموا بها وكانوا يزورونني يوميا .. لم تكن سعادتي بعودتي إليهم بأقل من سعادتهم .. انتبهت ذات مرة على صوت غرام تقول:

– حمدا لله على سلامتك يا أبي

غمغمت في ضعف واضح قائلا:

– حمدا لله

قالت زوجتي في سعادة:

– ها قد أعادك الله لنا

– بدعواتكم يا حبيبتي

قال عمرو في تأثر:

– لا تتركنا ثانية يا أبي! .. لا تتركنا أرجوك!

– اطمئن يا ابني

اقتربت غرام مني وقالت في حنان:

– كلنا فداك يا أبي

احتضنت يدها بين راحتي بينما أقول:

– كلي فداك يا صغيرتي

– أما زلت تراني صغيرة يا أبي

– وستظلين صغيرة في نظري طوال عمرك

– لقد تجاوزت الثامنة عشر يا أبي

– لقد صرت عروسا فاتنة جميلة

– ألم تعدني بأنك ستسلمني بيدك إلى عريسي؟

– إنني عند وعدي يا صغيرتي

– أبقاك الله لنا وأطال في عمرك! .. وأطال في عمرك يا أبي!

* * *

كان الطبيب خارجا من حجرتي ذات مرة حين اقترب منه أحدهم وقرب منه بطاقة هويته بينما يقول:

– الرائد خالد حمدي من المباحث العامة

شد الطبيب على يد الرجل بينما يقول:

– مرحبا سيادة الرائد

أشار الرائد نحو حجرتي بسبابته بينما يقول:

– كيف حال الرجل؟

– "حسن رشدي"؟

– نعم

– حالته شبه مستقرة

– هل يمكن سؤاله وأخذ أقواله؟

أشار الطبيب نحو غرفتي بإحدى راحتيه بينما يقول:

– بكل تأكيد

دلف الرائد إلى غرفتي وعرفني بنفسه وبعد أن رحبت به سحب مقعدا وجلس إلى جوار فراشي بينما يقول:

– يبدو أنك عقلية إقتصادية فذة "حسن" بيك

– أشكرك سيادة الرائد

– لقد إهتزت البورصة وهبطت هبوطا رهيبا في كل مرة تتعرض فيها للخطر

– ليس لتلك الدرجة يا سيادة الرائد

– بل أكثر "حسن" بيك .. يبدو أن تأثيرك على السوق قويا

– الحمد لله الذي أعانني لأخدم وطني

– جعلك الله ذخرا للوطن "حسن" بيك

– أشكرك

– لقد حققنا مع الجميع في المركز الرئيسي لمجموعة الشركات ولقد أجمعوا أن الطبيب "عادل فهمي" هو من حاول قتلك

– هراء!

اتسعت عينا الرائد دهشة وحملق بي مذهولا وهو يقول:

– هراء؟

– نعم فذلك لم يحدث قط .. الرجل بريء براءة الذئب من دم إبن يعقوب

– لماذا تحاول حماية الرجل؟

– لأنه بريء

– كيف أصبت إذن؟

– لقد كنت أنظف مسدسي عندما ..

– قاطعني مكملا:

– عندما انطلقت رصاصة عن طريق الخطأ وأصابتك

– كيف عرفت؟

– إنها عبارة مستهلكة في السينما والأفلام الهابطة

هتفت به قائلا:

– إنني لا أسمح لك

بدا الحرج والإرتباك على وجه الرائد فتغيرت لهجته تماما بينما يقول:

– "حسن" بيك .. تقرير الطبيب الشرعي يؤكد أن إصابتك كانت من رصاصة انطلقت من مسافة تزيد على المترين

– لقد كنت غاضبا فألقيت بمسدسي فاصطدم بالحائط وانطلقت منه الرصاصة

– ولكن تقرير الطبيب الشرعي يؤكد أن الرصاصة أنطلقت من مسدس آخر وليس مسدسك .. مسدس كان بحوزة الطبيب

– لقد كان بحوزته بالفعل وحين رأيته معه طلبت منه ان أتفحصه فوافق

– لماذا أتى الرجل إلى مكتبك أصلا "حسن" بيك؟

– بيننا عمل

– أي عمل "حسن" بيك؟ .. ألم تتهم الرجل بالجاسوسية وسجن لعشرين عاما بسببك

– عملنا تحكمه المصالح وأعداء الأمس قد يصيرون أصدقاء اليوم

– لماذا تضلل العدالة "حسن" بيك؟

– إنني مصر على أقوالي

– هل وجه لك الطبيب تهديدا من نوع ما؟

– أبدا

– لماذا تنكر الحقيقة الواضحة إذن؟

– إنني مصرّ على أقوالي

– لو لم ينل الرجل جزاءه قد يحاول قتلك ثانية و ..

قاطعته قائلا في غضب:

– إنه لم يحاول قتلي قط

– كما تريد "حسن" بيك! ما دمت مصرا على تبرئة الرجل

وكتب الرائد المحضر وجعلني أوقع على أقوالي قبل أن ينصرف .. كنت قد نسيت مقابلتي للملاك تماما أثناء غيبوبتي ونسيت كل ما دار

بيننا بل كنت حين أذكرها أظنها مجرد أضغاث أحلام ولكن شيئا بداخلي كان يلحّ علي لأصلح من أخطائي وبدأت بذلك الطبيب الذي اتهمته ظلما بمحاولة قتلي .. أما كفاه أنني تسببت في سجنه لعشرين عاما وأضعت أجمل أيام عمره؟ .. إعتبرت أن تلك السنوات هي عقابه وقد دفعه مقدما نظير ما فعل ثم أن العفو عند المقدرة .. لابد وأن أصير صالحا .. لابد وأن أتغير .. أتغير تماما

* * *

اتصلت بمدير مكتبي "عاطف علوي" بينما أرقد في فراشي بالمستشفى وأخبرته أننا سننتهج نهجا جديدا في مجموعة الشركات وبدا الرجل وكأنما قد أصيب بصاعقة كهربائية وهو يسألني:

– كيف؟

– سنتوقف عن استيراد اللحوم الفاسدة والتعامل فيها

– ولكن ..

قاطعته قائلا في حزم:

– ليس من لكن

– كما تريد "حسن" بيك

– والقمح الذي نستورده

– ماذا به؟

– يحوي كمية كبيرة من الإرجوت

– ولكنه رخيص الثمن ويدر علينا ربحا وفيرا

– سنستورد قمحا جيدا

– ولكن ..

– لا أريد نقاشا في هذا الأمر

– كما تأمر "حسن" بيك

– وسنتوقف عن دفع الرشاوي لكبار موظفي الدولة

– ولكن بذا لن ترسو علينا أي مناقصة

– سنعمل بنزاهة

– هكذا سنفلس في خلال أشهر عدة

– على العكس سيوفقنا الله ويبارك لنا في القليل فيصير كثيرا

– كما ترى "حسن" بيك

– وسنتوقف عن خلط لحومنا المفرومة باللحوم الفاسدة والمغشوشة وفول الصويا

– ولكننا سنخسر كثيرا

– لن نخسر

– كما تأمر "حسن" بيك

– وسنتوقف عن غش الألبان وإضافة الماء إليها

– حسنا

– ولن نغش في وزن الخبز الذي نبيعه في مخابزنا

صعق الرجل من مجموعة قراراتي وحاول إثنائي عن الأمر قائلا:

– بذا ستنخفض أرباحنا فجأة إلى الربع

– الربع الحلال أكثر وفرة من الكل الحرام

– أرجوك فكر جيدا!

– لقد فكرت وقررت

– لدينا مرتبات وموظفين وتأمينات وضرائب

– سيبارك الله لنا

– ولكن أسهمنا ..

– ماذا عن أسهمنا؟

– ستنخفض إلى ربع ثمنها مع الإنخفاض المفاجيء في الأرباح

– لن تنخفض أرباحنا

– كيف ذلك؟

– ستزداد مبيعاتنا مع تحسن منتجاتنا وبذا سنعوض الخسائر

– صدقني .. ذلك لن يحدث

– لماذا؟

– لأن ذوق الناس في الأكل قد انحدر ولن يستسيغوا المنتج الجيد

قلت في دهشة بالغة:

– كيف ذلك يا رجل؟

– صدقني! ذلك ما سيحدث

– ولكن ليس هذا مبررا لنستمر في غشهم

– الغلاء جعل الناس يريدون المنتج الأرخص حتى لو كانوا متأكدين أنه مغشوش

– أي كان .. ستنفذ ما أمرتك به

– لماذا نهدم شركاتنا بأيدينا؟

– لأنني قررت أن أتغير .. قررت أن أصير نظيفا .. وليسامحني الله على ما مضى .. وليسامحني الله

* * *

بعد أيام تحسنت صحتي واستقرت حالتي تماما وانتزع الأطباء الأجهزة والأنابيب التي ظلت لأيام متصلة بجسدي ونقلوني من غرفة العناية المركزة إلى جناح أنيق فخم بالمستشفى ولكنني بدأت مع الوقت أشعر بالملل الشديد فنهضت عن فراشي ورحت أتمشى في ردهات المستشفى ووجدت نفسي بجوار غرفة الأطباء وفكرت أن أطلب منهم السماح لي بالخروج واستكمال علاجي في فيلتي فقد تحسنت حالتي ورفعت يدي أطرق

الباب ولكني تراجعت فجأة وغلبني فضولي حين سمعتهم يتحدثون عني

– "حسن رشدي" هو أكبر وأهم رجل أعمال في مصر

– واضح من حجم أكاليل الزهور التي تملأ كل ردهات المستشفى

– لقد زاره واطمئن عليه كل رجال السياسة وكبار القيادات الأمنية في البلاد

– لم يتبق سوى الرئيس

– لقد أرسل إليه الرئيس ببرقية يطمئن على صحته ويهنئه بسلامته

– حقا؟

– أقسم أنني قرأت البرقية بنفسي

– أهو هام لتلك الدرجة؟

– لقد انهارت البورصة لمجرد خبر إصابته

– وكيف سيكون الأمر لو توفي الرجل؟

– لا أدري فلربما انهارت البلاد نفسها

– لتلك الدرجة؟

– الرجل يتحكم بشركاته في معظم اقتصاد البلاد وقوت العباد

– ولكن أليس غريبا ما حدث؟

– ماذا تقصد؟

– عندما أردنا إجراء نقل دم له

– وما الغريب؟

– ألم تلحظ شيئا غير عادي؟

– لا .. لم ألحظ شيئا

– الرجل فصيلة دمه o

– نعم

– وزوجته A

– نعم

– من المفترض أن يكون أبناؤه A أو O

– نعم

– ولكن ابنه وابنته يحملان كلاهما فصيلة دم AB لذا لم يصلح أي من أولاده لننقل له منهما دما

– إنني لم ألحظ ذلك في غمرة ارتباكي لإنقاذ حياة الرجل

– من أين جاء الجين الغريب B في رأيك

– لست أدري

– ليس لها سوى تفسير واحد

– ما هو؟

– كلاهما ليسا أبناؤه

– ربما أبناؤه بالتبني

– أخباره تملأ الصحف فلو تبنى أبناء لسمعنا حتما

– لا أدري .. دع الخلق للخالق

وقفت أمام الباب مشدوها وأحسست بقلبي يسقط بين قدميّ .. شعرت بسكين ينغرس في قلبي .. أردت أن أطرق الباب وأدخل لأتأكد منهما فقد كنت لشدة دهشتي لا أصدق أذنيّ ولكن شيئا كالشلل كان قد أصاب يديّ ورجليّ فتسمرت أمام الباب كالجماد .. تسمرت كالجماد تماما

* * *

استلقيت على فراشي تلك الليلة ولم أستطع النوم حتى الفجر فقد كانت الدماء تغلي في رأسي .. لماذا يا إلهي؟ .. لماذا تلك التجربة الصعبة؟ .. لماذا الآن بالذات؟ .. لماذا بعد أن قررت أن أتغير؟ .. لماذا؟ .. يبدو أنه لا فائدة .. سيظل الشرير شريرا حتى نهاية عمره .. لقد قررت التوبة وتغيير حياتي .. ولكن كيف؟ .. كيف لا أقتل تلك العاهرة التي خدعتني؟ .. تلك الخائنة التي لوثت

شرفي .. كيف أتغير؟ وكيف أصفح وشرفي على المحك؟ .. كيف أعيش بين الناس ملوث الشرف؟ .. وماذا عن عمرو وغرام؟ .. كيف لا يكونون أبنائي؟ .. لقد أحببتهما من كل قلبي .. كيف لا يكونان من صلبي؟ .. مستحيل! .. غرام تشعر بي وبألمي .. تتوجع من ألمي قبل أن أتوجع .. روحها مرتبطة بروحي .. تشعر بي قبل أن أشعر بنفسي .. مستحيل ألا تكون ابنتي! .. مستحيل! .. مستحيل! .. لابد وأن أتأكد أولا .. نهضت عن فراشي وقت آذان الفجر وذهبت أبحث

عن الطبيبين في استراحة الأطباء في المستشفى ولما وجدتهما أيقظت كلاهما في عنف ونظرا كلاهما نحوي في دهشة وهما يتثاءبان ويفتحان أعينهما في صعوبة وقال أولهما:

– "حسن" بيك؟

– نعم

– ماذا حدث؟

– لقد سمعتكما تتحدثان عني

– نحن؟

– نعم

تدخل الطبيب الثاني في الحديث قائلا:

– إننا لم نتحدث عنك قط

قلت في عناد:

– لقد تحدثتما عني بالأمس

قال الطبيب الأول في حرج:

– لقد كنا نمتدح سيادتك "حسن" بيك وكنا نقول أنك شخصية إقتصادية فذة

ركزت بصري في أعينهما بينما أقول:

– وقلتما أن ابني وابنتي من المستحيل أن يكونا أبنائي

ظهر الحرج على وجوههما وقال الطبيب الثاني:

– لم يحدث ذلك قط

قلت في عناد وإصرار:

– بل حدث وستتكلمان وتخبراني بالحقيقة وإلا ..

قاطعني الأول قائلا:

– وإلا ماذا؟

– وإلا سأقاضيكما

ظهر الهلع في عيونهما فقد كانا يعرفان "حسن رشدي" جيدا ويدركان جيدا ماذا

يعني تحديهما له وظهر التردد عليهما لبرهة ولكنهما قررا أخيرا التحدث إليّ لست أدري إن كان ذلك خوفا من مقاضاتي لهما أو إتقاء لشري وتطوع أحدهما وشرح لي الأمر واستفسرت منهما عن كل شيء وما أن انتهيت من الحديث معهما حتى تضخمت شكوكي وكادت أن تفتك بي وما استرحت مذ ذاك الحين .. ما استرحت قط

* * *

فكرت في الصباح أن أتصل بمدير مكتبي "عاطف علوي" ولكني تراجعت عن ذلك في اللحظة الأخيرة فالموضوع الذي كنت أريده فيه يدخل ضمن الأسرار العائلية وتذكرت أخي .. نعم هو أخي الذي سينجدني في شدتي فالأخ للشدة يولد .. اتصلت بإدارة المستشفى وطلبت منهم أن يوصلوني على الهاتف بأخي "اسماعيل" في الصعيد وأعطيتهم رقم هاتفه ولم تمض دقيقتين حتى ارتفع رنين الهاتف في غرفتي ورفعت السماعة في لهفة وما أن سمعت صوت "إسماعيل" أخي حتى

ترقرقت دموعي في عيني وسالت على وجنتي:

– "اسماعيل" أخي!

– كيف حالك يا حسن؟

– أحتاج إليك كثيرا يا أخي

– خيرا يا حسن؟

– ألم تعلم ما ألم بي؟

– وكيف لي أن أعلم؟

– أخباري تملأ الصحف

– تعلم أنني لا أتابع الصحف

– أما زلت مدرسا في نفس المدرسة؟

– لا لقد صرت مديرا للمدرسة

– إنك تستحق أكثر يا أخي

– الله كريم بعباده

– لو وافقت وعملت معي في شركاتي و ..

قاطعني قائلا:

– دعك من الماضي .. لقد أقلقتني عليك .. ماذا بك يا أخي؟

– لقد أطلق عليّ أحدهم الرصاص

– ماذا تقول؟

– أحتاج إليك كثيرا يا "إسماعيل" أنت أخي الأكبر و ..

– سأكون عندك في خلال ساعات

– سأنتظرك

وأعطيته عنوان المستشفى واستقل "اسماعيل" أول قطار وكان عندي في المساء وعندما رأيته على باب غرفتي في المستشفى أطلقت لدموعي العنان وأنا أنهض عن فراشي وأرتمي في حضنه

– حمدا لله على سلامتك يا أخي

– دعك من سلامتي فأنا أستحق ما حدث لي

– كيف؟

– لقد قضيت على إنسان وظلمته فكاد أن يقضي علي

– أخبرني من هو؟ وأقسم أن أقضي عليه

– أخي أرجوك! إنني أريدك في موضوع آخر أهم

– ما هو الأهم من حياتك يا "حسن"؟

– شرفي يا أخي

– وهل يجرؤ أحدهم أن يمس شرفك؟

– زوجتي

اتسعت عيناه في غضب وهو يقول:

– ماذا فعلت؟

– لقد خدعتني وخانتني

– تلك الفاجرة!

– لابد وأن أتأكد أولا

– كيف؟

– لو كنت أمتلك صحتي لتصرفت دون أن أزعجك ولكنك تعلم أنني أمر بفترة نقاهة ومعرض للإنتكاسة في أي لحظة ولقد رفض الأطباء السماح لي بالخروج

– رقبتي فداك يا أخي .. مرني تطاع

– أريدك أن تجري تحليل **DNA** لابني وابنتي وتطابقهما بال **DNA** الخاص بي

– وأين العينات المطلوبة؟

– سل الطبيب عن العينات المطلوبة وتصرف!

– حسنا .. سأفعل

– ولتخبرني بالنتيجة فور صدورها

– إطمئن يا أخي! أطمئن!

* * *

فتحت باب فيلتي بهدوء وتسحبت نحو حجرة نومي وما أن دخلتها حتى نهضت

زوجتي عن الفراش التي كانت تستلقي عليه واندفعت نحوي وهي تقول:

– هل سمح لك الأطباء بالخروج أخيرا يا حبيبي؟

دفعتها بعيدا عني في خشونة بينما أقول:

– لقد قررت الخروج بنفسي

– وصحتك؟

– وهل تهمك صحتي؟

– بالطبع تهمني

– وهل أهمك أنا من قريب أو بعيد؟

– أنت حبيبي

صفعتها على وجهها بكل ما أملك من قوة فوضعت إحدى راحتيها على موضع الصفعة بينما تنظر إلي في ذهول من خلال عينيها الدامعتين قائلة:

– لماذا؟

– ألا تدرين لماذا؟

– هل جننت؟

– جننت بعد أن خدعت

– من خدعك؟

– سلي نفسك أيتها الخائنة!

– خائنة؟

– نعم خائنة

اندفعت دموعها عبر عينيها لتغرق وجنتيها بينما تقول:

– لم أخنك قط

– وعمرو وغرام؟

– ماذا عنهما؟

– أبناء من هما؟

– هل جننت؟ .. إنهما أبناؤك

أخرجت من جيب سترتي مجموعة من الأوراق ألقيتها في وجهها بينما أصرخ بها في غضب:

– ليسوا أبنائي وهاك الدليل

اصطدمت مجموعة الأوراق بوجهها وسقطت على الأرض فنظرت نحوها دون أن تلتقطها بينما تقول:

– ما تلك الأوراق بالضبط؟

– إنها نتيجة تحليل ال **DNA** والتي تثبت بالدليل القاطع أنهما ليسا أبنائي

وأمسكت أحد ذراعيها وثنيته في يدي بعنف ودفعتها نحو الفراش فسقطت فوقه بينما أصرخ بها قائلا:

– أريد الحقيقة! .. الحقيقة كاملة

نهضت من سقطتها ودموعها ماتزال تغرق وجنتيها وجلست منتصبة على طرف الفراش بينما تقول:

– سأخبرك كل شيء

هتفت بها في غضب:

– تكلمي!

– كنت أنت عاجز عن الإنجاب وكان الجميع من حولي وخاصة أمي يطالبونني بالوريث

– لذا بررت لنفسك خيانتي؟

– أقسم أنني ما خنتك قط .. كيف خنتك؟ أنسيت أن ابننا وابنتنا أطفال أنابيب؟

– ماذا حدث إذن؟

– اتفقت مع الطبيب ليوهمك بوجود عملية نجحت في حالة مشابهة لحالتك وساعدني الطبيب طمعا في الملايين العشرة التي أخذها منك وأخذ البويضة مني ولقحها بحيوان منوي

لطمتها على وجهها بكل قوتي بينما أصرخ:

– ممن؟

صرخت بي من بين دموعها المنهمرة:

– من أي شخص لست أدري

– لماذا؟

– كان همي آنذاك أن أكون أما

لطمتها مرة أخرى بكل قوتي بينما أصرخ:

– أبناء من هم إذن؟

هزت رأسها نفيا بينما تصرخ في هستيريا وانهيار واضح من بين دموعها المنهمرة:

– لست أدري .. لست أدري .. أقسم لك لست أدري

* * *

لم أدر بنفسي إلا وأنا في زنزانتي أرتدي بدلة الإعدام الحمراء ومجموعة من رجال الشرطة قد اقتربوا من بوابتها وفتحوا بابها ووجدت نفسي أحملق بهم غير مصدق لما حدث بينما أغمغم في ذهول:

– هل حانت اللحظة؟ .. هل ستعدمونني؟

كنت جالسا على أرضية زنزانتي ولم أستطع الوقوف فلم تكن رجليّ تقويان على حملي .. أسرع إثنان من صف الضباط يحمل كلا منهما شريطتين أو ثلاثا على كتفه لست

أدري وتعاونا على حملي حملا ومضيا بي خلف مجموعة من الضباط لم أدقق في رتبهم فما عاد يفرق في عيني جاه أو مال أو سلطة .. كل شيء صار في عينيّ لا شيء .. كل شيء صار سرابا .. مضينا في ردهات السجن وطرقاتها نحو حجرة الإعدام وقدماي لا تقويان على المشي بل تصطدمان ببعضهما وتصطدمان بأرضية ممرات السجن .. كان ذاك هو طريق العذاب في حياتي .. لم أذق طعم العذاب كما ذقت في ذلك الطريق .. ليس ذلك لأنني كنت بريئا فأنا معترف أنني

مذنب مذنب .. بل وذنبي أعظم من أن يغتفر رغم رحمة الله الواسعة .. وإنما بسبب خوفي من الموت رغم أنني قد مت مرارا من قبل ولكني كنت متأكدا أن تلك المرة ستكون الأخيرة وبلا تذكرة عودة .. فلن أجد أحدا أيا كان يتعاطف معي فما فعلت كان شنيعا وجريمتي كانت مريعة .. ما هي إلا دقائق حتى لمحت بابا كتب عليه "غرفة الإعدام" وعندما قرأت تلك العبارة تضاعف الخوف بداخلي .. شعرت بالحياء من أن أطلب من الله أن يسامحني رغم أنه غفور

رحيم من جراء فظاعة جريمتي .. فأنا لم أكتفي بقتل زوجتي الخائنة ولكني قتلت أبنائي .. قتلت عمرو ابني .. قتلت غرام ابنتي التي كانت تعشقني وتراني أعظم أب في الدنيا .. قتلتهما بيدي الآثمتين .. قتلتهما بيدي هاتين اللتان تستحقان قطعهما .. دلفنا جميعا إلى داخل الغرفة ورأيت حبل الإعدام يتدلى من سقف الحجرة في انتظاري يهتز متحديا إياي والحقيقة هي أنني على الرغم من خوفي كنت أنا في انتظاره .. نعم كنت في انتظاره ليريحني من عذابي وألمي

وضميري .. ضميري الذي كان أكثر ما يعذبني بعد ما فعلت فما استراح وما تركني أستريح أو أنام لحظة واحدة طوال مدة المحاكمة وبدأت مراسم الإعدام ولم أكن أرى أو أسمع شيئا مما يقولون بل كنت شاردا أتعجل إعدامي .. لماذا يذكرونني بكل ما حدث وكل ما ارتكبت منذ البداية إنني أعرف جريمتي ومعترف بها منذ البداية بل إنني لم أحاول الهرب فقد أبلغت عن جريمتي بنفسي .. كنت أرضى بالموت عقابا ليريحني من عذابي وإن كنت أعرف انه لن يريحني بل

ستبدأ مرحلة جديدة من العذاب الرهيب .. قبل أن تنتهي المراسم مر بخلدي ما سيحدث لي في اللحظات التالية سيلبسونني طاقية سوداء تغطي كامل وجهي وتزيد من رعبي وتجعلني أنغمس في ظلام رهيب ثم يحيطوا رقبتي بحبل المشنقة ويضيقوا الأنشوطة حولها ويجذب "عشماوي" الذراع ورأيت نفسي معلقا من رقبتي أتنفس بصعوبة بعد أن انكسرت بعض فقرات عنقي وخلت أنني أسمع قرقعتها بأذني ويظل جسدي يتأرجح

لفترة وجيزة ورجلاي تضربان الهواء كالطير الذبيح ثم يهدأ جسدي تماما و ..

ووجدتني أهتف بصوت عال:

– لا .. هذا لن يحدث أبدا

وحملق بي الضباط والجنود مشدوهين وقبل أن يحرك أحدهم ساكنا كنت قد هجمت على أحد الضباط واختطفت مسدسه موجها إياه نحو صدغي وأطلقت منه رصاصة ..

رصاصة استقرت في رأسي ..

الآن فقط أستطيع ان أقول لكم بكل ثقة أنني قد مت ..

مت بلا رجعة

* * *

انطلقت بروحي أنفصل عن جسدي ووجدتني في تلك الهوة المظلمة السحيقة .. كنت أعلم أن تلك كانت نهايتي ولا حل لي لأعود مرة أخرى لحياتي وظلت روحي تتهادى في الظلام هابطة نحو الهوة التي لا قاع لها وظللت هكذا دون أن أشعر بزمن أو

وقت وفجأة تغير المشهد أمامي وظهر الملاك النوراني المضيء واقترب مني بينما يقول:

– لماذا دمرت نفسك؟

– ماذا كان بيدي أن أفعل؟

– لقد فشلت في أول إختبار حقيقي في الحياة

– كان إختبارا صعبا

– كان يمكنك أن تسامح وتغفر

– الله وحده يسامح ويغفر

– هل تجد نفسك مظلوما؟

– بالطبع فقد كنت أنتقم لشرفي

– وماذا عن قتلك لأولادك؟

وبكت روحي .. أقسم أنني شعرت بها تبكي

ومع ذلك قلت بعناد:

– لا تقل أولادك .. إنهم ليسوا أولادي

– ألم تحبهم؟

– أحببتهم أكثر من نفسي

– ألم تربهم في حضنك؟ .. ألم يكبروا ويترعرعوا أمام عينيك؟

– إنني أتمنى أن أفديهم بحياتي

– كيف وقد قتلتهم؟

– كيف كانوا سيعيشون في تلك الفضيحة والعار؟

– كان الله الذي يدبر الكون سيدبر شئونهم .. هل يئست من رحمة الله؟

– لا ولكن ..

– لماذا نصّبت نفسك جلادا وقتلتهم؟ .. لماذا قتلت نفسك؟

انتظر الملاك أن أجيب ولما لم أجبه استطرد قائلا:

– ألم تنظر غرام في عينيك بعينيها الدامعتين باكية بينما المسدس في يدك وتسألك ذاهلة غير مصدقة: لماذا يا أبي؟

– قلت لها: ليس الأمر بيدي يا ابنتي

– ألم يرجوك عمرو أن ترحمه وتدعه يعيش؟

– رجاني وما رحمته وما تركته يعيش

وانفجرت روحي باكية بينما أستطرد:

– إنني أستحق أن أعيش في جهنم

– هيا إذن!

– أستأذنك لثانية واحدة!

– لماذا؟

– سأترك وصية لأهلي وأصدقائي

"إلى أهلي وأصدقائي: انتبهوا لأنفسكم! ..

لا تتركوا الغضب يعميكم فهو أول الطريق إلى جهنم! ..

لا تتركوا الشر يسيطر عليكم! ..

لا أريدكم في ذلك الموقف الرهيب الذي أقف به الآن ..

إنني ذاهب إلى جهنم حيث نار لا تطفىء ودود لا يموت ..

ذاهب إلى حيث العذاب ..

العذاب الرهيب ..

وداعا أهلي وأصدقائي"

حسن

رشدي

* تمت بحمد الله*